مع التحية البسودا ١٥٠

الجمهورية العربية الليبية
الجامعة الإسلامية
كلية أصول الدين



القول السديد
في
تفسير سورة الحديد

تأليف

الشرابصي حسنين
الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر

١٣٨٩ هـ - ١٩٧٠ م

مطبعة دار التأليف بالمالية بمصر
تليفون ٢١٨٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

أحمد الله تبارك وتعالى وأصلى وأسلم على أشرف خلقه وأسعد أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم وأستعين بالله وأسأله التوفيق وبعد :

فلما كان كتاب الله هو المصدر الأول للتشريع ، وهو الدستور الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . لما كان كذلك وجب على العلماء أن يعنوا به وأن يبذلوا قصارى جهدهم فى تفسيره وبيانه ، وها أنا ذا أسعى للقيام ببعض هذا الواجب ليكون ذخيرة دائمة لى عند الله كما أخبر بذلك رسوله صلى الله عليه وسلم حيث قال : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له . رواه مسلم .

وقد كان بيان القرآن مهمة الرسول الأولى لقوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ثم أمر المسلمون وبخاصة العلماء منهم أن يتدبروا كلام الله ليستنبطوا منه حكم ما يحدث لهم ، وبذلك تفاوت شأن العلماء بقدر تفاوتهم فى فهم

كتاب الله واستخراج أحكامه ونالوا بذلك الدرجات العلى فى الدنيا والآخرة . وإلى ذلك يشير الله بقوله (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) .

وهذا شروع فى تفسير سورة الحديد . وقد استخرت الله تعالى وسميته « القول السديد فى تفسير سورة الحديد » .

والسر فى اختيارى لهذه السورة أمور :

أولا : ما ثبت فى فضل سور المسبحات عموماً : روى الإمام أحمد فى مسنده عن عرياض بن سارية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد . وقال إن فيهن آية أفضل من ألف آية ، وكذلك رواه أبو داود والترمذى قال الإمام ابن كثير فى تفسيره : والآية المشار إليها فى الحديث هى — والله أعلم — قوله تعالى : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم) . فإن وافق الواقع ما رآه ابن كثير كان ذلك دليلا على فضل سورة الحديد فضلا أكثر من أخواتها

واعلم أن كون السورة أفضل من أخرى إنما يرجع إلى كثرة الثواب لقارئها والعامل بما فيها أو المعتقد بما فيها من وحدانية الله وصفاته . ولذلك جعل الرسول صلى الله عليه وسلم قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن . ولا يجوز أن ترجع الأفضلية إلى

الناحية البلاغية فكل القرآن فى أعلى درجات البلاغة وكل مقام فيه روعى فيه مقتضى الحال وكل كلمة فيه لها مع صاحبتها مقام ، وكله معجز لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . غاية ما فى الأمر أن العلماء وقفوا على أسرار بعض آيات فأشادوا بما فيها من بلاغة ولم يقفوا على البعض الآخر فسكتوا عاجزين .

ثانياً : ما اشتملت عليه سورة الحديد من آيات القدرة والعلم وهما من صفات الله المقدسة .

ثالثاً : دعوتها إلى هدفين عظيمين لو تحققا فى أى أمة لنالت عزة الدنيا وسعادة الآخرة الهدف الأول الإيمان بالله ورسوله ، والهدف الثانى الإنفاق فى سبيل الله .

رابعاً : ضرر الابتداع على الفرد والجماعة ووجوب الاتباع وذم الرهبانية ، وكل هذه الأمور الأمة اليوم فى أشد الحاجة إلى الاستماع إليها والامتثال لها .

خامساً : مادعت إليه سورة الحديد من وجوب الإيمان بالقضاء والقدر والتسليم التام لله عند البلاء وفى السراء والضراء ، وتربية هذا الخلق فى نفوس الأمة .

هذا وقد راعينا فى تفسير هذه السورة أن يكون مشتملا على الأبحاث اللغوية والبلاغية ، وأن يكون الحـــديث بجانب الآية يشرح معناها ، ويوضح هدفها ليتبين لـكل باحث ما احتواه كتاب الله من أسلوب فاق جميع الأساليب ، وبلاغة تحدى الله بها جميع خلقه فقال تعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للـكافرين) .

واعلم أن السر فى تسمية هذه السورة بهذا الإسم أن نصر الله ورسوله يكون بالجهاد . وأدوات الجهاد المدافع والسيوف وغير ذلك وكلها من الحديد . فنزل الحديد منزلة الآيات كتسمية الرعد والنحل لأنهما آيتان من آيات الله ، أو لأن الحديد سبب لإقامة العدل فى الدنيا كالقرآن . أو لأنه جامع للمنافع فما من صناعة إلا وللحديد دخل فيها وما من حروب إلا وللحديد البأس فيها والقوة . وأسماء السور توقيفية والسورة تسمى بأغرب شىء فيها كسورة البقرة أو تسمى بما يريد الله أن يوجه أنظار الخلق إلى ما فيه من بديع القدرة كسورة الرعد والنحل والعنكبوت وغير ذلك .

والجمهور على أن سورة الحديد مدنية بل قال النقاش هى مدنية

بإجماع المفسرين لأن نظم آياتها وما تشير إليه من الفتح يؤيد ذلك قطعاً . ولأن فيها ذكر المنافقين والمنافقات ولم يعرف النفاق إلا بعد الهجرة من يهود المدينة . وآياتها تسع وعشرون آية إلا أن دعوى الإجماع لا تسلم . ولذلك قال ابن عطية : لاخلاف أن فيها قرآناً مدنياً لكن يشبه أن يكون صدرها مكياً ، ويشهد لهذا ما أخرجه البزار فى مسنده والطبرانى والبيهقى عن عمر رضى الله عنه أنه دخل على أخته قبل أن يسلم فإذا صحيفة فيها أول سورة الحديد فقرأه حتى بلغ (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) فأسلم .

ويشهد لمكية آيات أخر ما أخرجه مسلم والنسائى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ماكان بين اسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) إلا أربع سنين .

ووجه مناسبة سورة الحديد للواقعة قبلها أنها بدئت بذكر التسبيح والواقعة ختمت بالأمر به فكأن الله يقول سبح باسم ربك العظيم لأنه سبح له ما فى السموات والأرض . فيجب أن تسير فى مواكب المسبحين لما فى التسبيح من رضوان الله ونجاة العبد والله يقول فى شأن نبيه يونس عليه السلام فلولا أنه كان

من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون أى لبقى سجيناً فى بطن الحوت وفى أقصى الظلمات واعلم أن أسلوب — القرآن المعجز — لا بد أن تأخذ كل سورة فيه بعناق الأخرى بل كل آية تستدعى ما بعدها وتتصل بما قبلها فهو كالسلسلة المحكمة كل حلقة منها تأخذ بالأخرى ، ولذلك عنى المفسرون قديماً وحديثاً بذكر مناسبات السور بعضها مع بعض ، وكذلك عقدوا مناسبات بين الآيات وقد بذلوا فى ذلك جهداً كبيراً جزاهم الله عن الإسلام والقرآن خيراً ، وإن كان بعضهم كان يحمل على نفسه ويكلفها شططاً فى بعض الأحيان كالبقاعى فى بعض مناسباته .

وأشد ما لاقى العلماء فى هذه المناسبات عند قوله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) . بعد قوله : (بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره) فإن أردت الاطلاع على هذه المعمعة فعليك بكتاب الإتقان فى علوم القرآن للإمام السيوطى أو كتب التفسير التى تعنى بالمناسبات .

بسم الله الرحمن الرحيم

ورد في فضل البسملة آثار كثيرة منها قول النبي صلى الله عليه وسلم : إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها . ذكره القرطبي في تفسيره ، وبين ما في سنده من أقوال مختلفة .

ومنها ما رواه النسائي عن أبي المليح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تعس الشيطان فإنه يتعاظم حتى يصير مثل البيت ويفتخر بقوته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب ، وروى الشعبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب باسمك اللهم حتى نزل اركبوا فيها بسم الله مجراها فكتب باسم الله فلما نزل قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن كتب باسم الله الرحمن فلما نزلت وإنه بسم الله الرحمن الرحيم كتبها كذلك . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ليجعل الله له بكل حرف منها جُنة أي وقاية من كل واحد فالبسملة تسعة عشر حرفاً على

عدد ملائكة أهل النار ، الذين قال الله فيهم عليها تسعة عشر وهم يقولون فى كل أفعالهم بسم الله فمنها قوتهم .

وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً فى فضل البسملة : كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر أى لا بركة فيه ولا أثر له . قال الإمام على القارى هو حديث مشهور عند أئمة الأثر ، وكذلك ذكره السيوطى . أما أبو داود فرواه لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع ذكره السخاوى فى المقاصد الحسنة .

قال القرطبى : بسم الله قسم من ربنا أنزله عند رأس كل سورة يقسم لعباده أن هذا الذى وضعته لكم حق وأنى سأفى لكم بجميع ما تكفلت به فى هذه السورة من وعدى واطفى وبرى .

وقد تضمنت البسملة شرائع التوحيد لأنها تدل على الذات والصفات وهو ما ينبىء عنه قسم الإلهيات .

والصحيح أن البسملة آية من القرآن الكريم لإجماع العلماء على وجوب تجريد المصحف مما ليس منه ، ولاتفاق الصحابة على أن ما بين الدفتين كلام الله ، وقد ذكرت فى مصحف عثمان الإمام بإجماع من الأمة .

أما أنها آية من كل سورة أو من الفاتحة وحدها أو أنها آية

فذة نزلت للفصل بين السور فذلك موضع اجتهاد لا ضرر من الاختلاف فيه متى أجمع الكل على أنها من القرآن .

والباء متعلقة بفعل محذوف ولك أن تقدره فعل أمر أو فعلا آخر فعلى الأول يكون المعنى أبدأ باسم الله وعلى الثانى أبتدىء باسم الله . والإسم مشتق من السمو وهو العلو والرفعة لأن الإسم يعلو بالمسمى . وقال الكوفيون إنه مشتق من السمة وهى العلامة لأن الإسم علامة لمن وضع له .

وعلى رأى الكوفيين يكون أصل إسم وسم بالواو والرأى الأول أصح لأنه يقال فى التصغير سمى وفى الجمع أسماء ، والجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها .

وأما الله فهو الإسم العلم للذات المقدسة قال القرطبى وهو أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها حتى قال بعض العلماء إنه إسم الله الأعظم ولم يتسم به غـــيره ولذلك لم يثن ولم يجمع فالله إسم للموجود الحق الجامع لصفات الألوهية المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقى لا إله إلا هو سبحانه ، وسيأتى للبحث بقية إن شاء الله .

وأما الرحمن فقال بعضهم أنه لا اشتقاق له لأنه من الأسماء

المختصة به سبحانه ولأنه لو كان مشتقاً من الرحم لم تنكره العرب حين سمعوه إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربهم .

وقد قال الله عز وجل : (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) ولما كتب على رضى الله عنه فى صلح الحديبية بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بسم الله الرحمن الرحيم قال سهيل ابن عمرو : ما ندرى هـــذه الكلمة ولكن أكتب ما نعرف باسمك اللهم ،

وذهب الجمهور من الناس إلى أن الرحمن صيغة مبالغة مشتق من الرحم ومعناه ذوالرحمة المختص بها الذى لا نظير له فيها ولذلك لا يثنى ولا يجمع كما يثنى الرحيم ويجمع .

ومما يدل على الاشتقاق ما رواه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن ابن عوف أنه سمع رسول الله صـــلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها إسماً من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته . وإنما كان إنكار العرب له لجهلهم بالله وبما وجب له والرحيم صفة أخرى مؤكدة لأن الرحمن والرحيم بمعنى واحد كل منهما صيغة مبالغة .

وقال أبو على الفارسى ليس بناء فعلان كبناء فعيل فالرحمن

إسم عام فى جميع أنواع الرحمة خاص بالله تعالى وأما الرحيم فهو عام الإسم خاص بالمؤمنين .

وأما ماورد من أنهم أطلقوا على مسيلمة رحمان اليمان فقال شاعرهم :

وأنت غيث الورى لازلت رحمـــاناً

فذلك من شدة تعنتهم فى كفرهم . وعلى ذلك أكثر العلماء واستأنسوا على ذلك بقول الله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) فعادل الإسم الذى لا يشترك معه غيره فيه ، وكذلك قوله تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) فأخبر أن الرحمن هو المستحق للعبادة دون سواه فإن قيل لم قدم الرحمن على الرحيم قلنا لأن فعلان صيغة مبالغة دائماً أما رحيم فقد تكون بمعنى الفاعل من غير مبالغة بل قد تكون بمعنى المفعول كما فى قول الشاعر .

فأما إذا عضت بك الحرب عضة فإنك معطوف عليك رحيم

وكذلك لما فى الرحمن من الاختصاص بالله دون الرحيم .

وإليك نصوصاً من آثار السلف الصالح تتعلق بالبسملة :

قال سعيد بن أبي سكينة : بلغني أن علي بن أبي طالب رضى الله

عنه وكرم الله وجهه نظر إلى رجل يكتب باسم الله الرحمن الرحيم فقال له جودها فإن رجلا جودها فغفر له ، وبلغنى أن رجلا نظر إلى قرطاس فيه بسم الله الرحمن الرحيم فقبله ووضعه على عينيه فغفر له ، وفى وفيات الأعيان والرسالة القشيرية أن بشرا الحافى كان يقترف المعاصى وفى ذات يوم أصاب فى الطريق ورقة مكتوباً فيها إسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام فأخذها واشترى بدراهم طيباً فطيب بها الورقة وجعلها فى شق حائط فرأى فى النوم كأن قائلا يقول له يا بشر طيبت إسمى لأطيبنك فى الدنيا والآخرة فلما انتبه من نومه تاب إلى الله وأصبح من عباده المقربين .

فائدة . ندب الشرع إلى ذكر البسملة فى أول كل فعل كالأكل والشرب والذبح والجماع والطهارة وركوب البحر قال تعالى : (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه أن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبداً

وقال صلى الله عليه وسلم أغلق بابك واذكر اسم الله واطفىء مصباحك واذكر اسم الله وخمر إناءك واذكر اسم الله والتخمير

التغطية وأوك سقاءك واذكر اسم الله أى شدوا واربطوا رءوس الأسقية بالوكاء وهو الخيط الذى تشد به الصرة والكيس وغيرهما وذلك لكى لا يدخل فى الوعاء حشرة سامة أو يسقط فيه ما يؤذى أو ما يلوث الماء .

وشكى عثمان بن أبى العاص إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه يجد وجعاً فى جسده منذ أسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثاً وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر .

هذه الأحاديث كلها ثابتة فى الصحيح وهى تعطى للمؤمن سلوكا خاصاً تجعله دائماً يذكر الله ، ويراقبه فى سره وعلانيته وسفره وإقامته . وتخلق فيه ضميراً حياً يحاسبه على كل تقصير فى عمل خاص أو عام . وبهذا يصبح المؤمن أميناً على أداء واجب ربه ووطنه ونفسه وأهله . كل ذلك ببركة بسم الله الرحمن الرحيم .

تنبيه : كل ما تقدم من تفسير البسملة سائغ لغة وشرعاً . أما ما ذهب إليه بعضهم من أنها أوائل أسماء فكل حرف منها رمز لإسم كريم فقال : الباء بلاء الله وروحه ونضرته وبهاؤه

والسين سناء الله والميم ملك الله وأما الله فلا إله غيره وأما الرحمن فهو العاطف على البر والفاجر من خلقه ، وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة . وقال كعب الأحبار الباء بهاؤه والسين سناؤه فلا شيء أعلى منه والميم ملكه وهو على كل شيء قدير فلا شيء يغلبه . وقيل الباء مفتاح بصير والسين من سميع والميم من مليك والألف مفتاح اسم الله واللام مفتاح لطيف والهاء مفتاح هادى والراء مفتاح رازق والحاء من إسم حليم والنون مفتاح نور . فكل ذلك قول على الله بغير علم وتفسير لكلامه من غير دليل شرعى فالأولى الإعراض عن مثل هذه التفاسير . والله أعلم .

قال الله تعالى :

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ • لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ •

المفردات اللغوية

سبح الشخص تسبيحاً قال سبحان الله ، ومعنى سبحان الله تنزيهاً لله من الصاحبة والولد والنقص وهو معرفة ومنصوب على المصدر أى أبرىء الله من السوء براءة ومعناه السرعة إليه والخفة فى طاعته ، ومن صفاته تعالى سبوح قدوس بتشديد الباء والدال لأنه يسبح ويقدس ، وسبحات وجه الله أنواره ، وأما قوله تعالى : « والسابحات سبحاً » فهى السفن التى تسير بخفة وسرعة على وجه الماء فأشبهت السابح فى الماء أو هى النجوم تسير فى

مدارها ، والسوابح الخيل لسبحها بيديها فى سيرها ، ويطلق السبح على الإبعاد فى السير تقول سبح فى الماء ، وسبح فى الأرض إذا أبعد فيهما ، فالمادة تدور على الخفة والسرعة والإبعاد ، ولذلك كان التسبيح تنزيهاً لله وإبعاداً له عن كل ما لايليق به سبحانه وتعالى إعتقاداً وقولا وعملا وحكماً .

قال الفخر الرازى فى تفسيره : إعلم أن التسبيح تبعيداً لله عن السوء ، ويدخل فى ذلك تبعيد ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه وأحكامه ، فتبعيد الذات عن السوء بأن يكون الله واحداً لا شريك له وأن تكون ذاته منزهة عن الإمكان وحلول الحوادث ومشابهتها .

وتبعيد الصفات بأن تكون منزهة عن العجز والجهل والتغير .

وتبعيد أفعاله تعالى من السوء بأن لا تكون فاعليته موقوفة على مادة ومثال ، ولا على زمان ومكان .

وتبعيد أسمائه تعالى فكما قال الله تعالى . « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه » .

وتبعيد أحكامه تعالى عن السوء فهو اعتقاد أن كل ما شرعه الله للناس فهو مصلحة وإحسان وخير فى كل زمان ومكان. اه بتصرف يسير .

والله علم على الذات المقدسة المعبودة بحق . قال أهل اللغة إله ألوهية عبد عبادة وكل ما اتخذ معبوداً إله عند متخذه ، والتأله التنسك والتعبد وأله كفرح تحير . وأله إليه إذا فزع إليه ولاذ به ، وأله عليه اشتد جزعه عليه .

قال الإمام القرطبي : اختلفوا فى لفظ الجلالة هل هو مشتق أو موضوع للذات علم لها ، فذهب إلى الأول كثير من أهل العلم ولكنهم اختلفوا فى اشتقاقه وأصله فقال الخليل أن أصله إلاه مثل فعال بكسر الفاء ، فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة وقال سيبويه هو مثل الناس أصله أناس .

وقيل أصل الكلمة لاه ، ودخلت الألف واللام عليه لإفادة التعظيم ، وأنشدوا لترجيحه ما قال الشاعر :

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب
عنى ولا أنت ديانى فتخزونى

وقال الكسائى والفراء الله أصله الإله حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لاماً مشددة .

وقيل هو مشتق من وله إذا تحير ، فلما كان الله سبحانه تتحير الألباب وتدهش فى حقائق صفاته كان أحق باسم الله ، فعلى

هذا أصل إلاه ولاه وأن الهمزة مبدلة من واو لثقل الكسرة، كما فى إشاح ووشاح وإسادة ووسادة .

وقال الضحاك إنما سمى الله إلهاً لأن الخلق يتألهون إليه فى حوائجهم ويتضرعون إليه عند شدائدهم ، وقد اعترض على هذا بأن الأصل فى الاشتقاق أن يكون لمعنى قائم بالمشتق ، وكل من الحيرة والتضرع قائم بالخلق لا بالحق .

وذكر القرطبى فى تفسيره أن القول بكونه علماً غير مشتق ذهب إليه جماعة من العلماء منهم الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وأصحاب هذا الرأى يقولون إن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفها منه .

قال الخطابى : والدليل على أن الألف واللام من بنية الكلمة ولم يدخلا للتعريف دخول حرف النداء عليه كقولك يا ألله حقق للمسلمين النصر ، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام التى للتعريف . ألا ترى أنك لا يصح أن تقول يا الرحمن ولا يا الرحيم فدل على أن الألف واللام فى قولنا الله من بنية الإسم العظيم :

وقد استدل الشيخ الألوسى فى تفسيره على أن الله علم من الأصل لذاته تعالى المقدسة بوجوه : —

الأول أنه يوصف ولا يوصف به :

الثانى أن الذات لا بد لها من اسم تجرى عليه الصفات ؛ فإن كل شيء تتوجه إليه الأذهان ويحتاج إلى التعبير عنه قد وضع له اسم توقيفى أو اصطلاحى فكيف يهمل خالق الأشياء ومبدعها ولا يوضع له اسم تجرى عليه صفاته .

الثالث أنه لو كان وصفاً لم تكن الكلمة توحيداً مثل لا إله إلا الرحمن إذ لا تمنع الأوصاف من الشركة .

والذى أستخلصه من هذه المعمعة أن الله كما عجز العقلاء عن إدراك ذاته عجز العلماء عن حقيقة اسم وأصل إطلاقه ، فسبحان من تفرد وحجب الخلق عن كنه ذاته .

ولفظ الجلالة يشتمل على كل ما تشتمل عليه الصفات الكريمة والأسماء الحسنى من معانى الجلالة والكمال ، ولذلك خص بالذكر فى كثير من المواضع دون سائر أسماء الله تعالى .

فإن قيل الفعل سبح متعد فكيف جاءت اللام فى قوله سبح لله ؟ قلت أجاب العلماء عن ذلك بأن اللام مزيدة للتوكيد كما فى قولهم نصحت له وشكرت له .

والأولى أن يقال جاءت اللام للتعليل والفعل منزل منزلة

اللازم أى فعل التسبيح وأوقعه لأجل الله تعالى وخالصاً لوجهه لا رياء فيه كما فى قوله تعالى : « فصلّ لربك وانحر » . وذلك للإشارة إلى أن الإخلاص فى العمل شرط لحصول الثواب .

أما الرياء فيؤدى إلى إحباط العمل وذهاب ثوابه كما قال الله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا» . وقال أيضاً : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى فى حديثه القدسى :

« أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه » .

كذلك أخرج أبو داود والنسائى بإسناد جيد عن أبى إمامة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا شىء له فأعادها ثلاث مرات ويقول الرسول لا شىء له

ثم قال : إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه .

وما : فى قوله ما فى السموات اسم موصول بمعنى الذى أو نكرة موصوفة وأن أصل الكلام ما فى السموات وما فى الأرض ثم حذفت ما الثانية وأقيمت صفتها مقامها . والأرجح أن تكون موصوفة لأن الصلة لا تقوم مقام الموصول عند البصريين ، وتقوم الصفة مقام الموصوف عند الجميع ، والحمل على المتفق عليه أولى من الحمل على المختلف فيه .

وكون المذكورة موصولة والمحذوفة تجعل نكرة موصوفة مما لا وجه له كذا قيل .

وأنا لا أرى مانعاً من الموصولية فيهما مع حذف الثانية وأمثلة ذلك كثيرة .

والسموات جمع سماء وهى مؤنثة وقد تذكر قال فى القاموس سما سمواً ارتفع والسماء سقف كل شىء ويطلق على السحاب والمطر سماء ويقال سماء فاخره . والسموات هى السبع التى أشار الله إليها فى كثير من الآيات كقوله : « الله الذى خلق سبع سموات » وقوله : « فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها » .

وعلماء المراصد الحديثة يرون أن السموات ليست أجراماً كثيفة محسوسة وإنما هى مدارات وهمية للأفلاك ولا يؤمنون بحصرها فى سبع ولا يتصورون كونها طبقات بعضها فوق بعض.

ولكنا نؤمن بالغيب الذى جعله الله من أخص صفات المتقين فى أول كتابه فى قوله تعالى: « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »

وما دام القرآن قد أثبت أن الله خلق سبع سموات طباقا وأنه رفعها بقدرته من غير عمد وذلك مشاهد للناس لا يحتاجون دليلا عليه كما قال تعالى: « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ».

وما دام الحديث الصحيح الذى رواه البخارى يثبت أن جبريل عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج قد استفتح كل سماء واستأذن على كل باب حتى فتح له. أقول ما دام الأمر غيبياً أخبر به الصادق وجب الإيمان به. أما مراصد الأرض فمهما بلغت قوتها ومهما وصل العلم إلى بعض أسرار الفضاء فقد خفى عليها الكثير. والله يقول: « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وأما الأرض فمؤنثة إسم جنس أو جمع بلا واحد ولم يسمع أرضه وجمع أرض أرضون والأرض كل ما سفل والأرض محركة دويبة صغيرة تأكل الخشب ونحوه ويقال أرض أريضة أى زكية معجبة

للعين خليقة للخير . وهى أيضاً سبع كما ينبىء عنه قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن » .

فالظاهر من المثلية أنها فى العدد . وقد اختلف العلماء هل هى سبع متصلة فهى طبقات متصلة بعضها جيرى وبعضها كبريتى وبعضها حديد وبعضها ذهب وبعضها ألمنيوم وهكذا أو هى سبع منفصلة كل أرض فلك مستقل له حكم قائم بنفسه . والأخبار تؤيد الثانى فقد روى القرطبى بسنده عن عطاء أن كعباً كان يحلف لأبيه فيقول والذى فلق البحر لموسى أن صهيباً حدثه أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها . قال أبو نعيم هذا حديث ثابت من حديث موسى بن عقبة تفرد به عن عطاء . وفى صحيح مسلم ما يشير إلى الأول وإن كان محتملا للثانى ما روى عن سعيد بن زيد قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين ، وما

روى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يأخذ أحد شبراً من الأرض بغير حقه إلا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة .

قال القرطبي : والرأى الثانى هو رأى الجمهور فهى سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والسماء وفى كل أرض سكان من خلق الله .

ولعل العلم الحديث يكشف لنا عن هذه المسائل ولعل سفن الفضاء تأتى بمعلومات عن هذا الملكوت الذى أبدعه الله ليكون دليلا على قدرته ووحدانيته : قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط »

وأصرح ما ورد فى هذا الشأن ما رواه الترمذى عن أبى هريرة قال : بينما نبى الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون ما هذا ؟ »

قالوا : « الله ورسوله أعلم ؛ قال هذا العنان هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » ثم قال : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » قالوا : « الله ورسوله أعلم » قال : فإنها الرقيع

سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال هل تدرون ما بينكم وبينها؟ » قالوا : « الله ورسوله أعلم » قال « بينكم وبينها خمسمائة عام » ثم قال : هل تدرون مافوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « سماءين بعدُ ما بينهما خمسمائة سنة » ثم قال كذلك حتى عدّ سبع سموات مابين كل سماءين ما بين السماء والأرض ثم قال : هل تدرون مافوق ذلك؟ » قالوا : « الله ورسوله أعلم » قال : « إن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بُعد ما بين السماءين » ثم قال : « هل تدرون ما الذى تحتكم؟ » قالوا : « الله ورسوله أعلم » قال : « إنها الأرض » ثم قال : هل تدرون ماتحت ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم » قال : « إن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة » . حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ، ثم قال : « والذى نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله » .

ثم قرأ عليه الصلاة والسلام قوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » .

ومعنى لهبط على الله أى لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه أو تجعله من المتشابه الذى تفوض معناه إلى الله (والعزيز) عز يعز عزاً وعزة بالكسرة وعزازة بالفتح صار عزيزاً كتعزز وقوى بعد

ذلة وعز الشيء قل فلا يكاد يوجد فهو عزيز جمعه عزاز وأعزه وأعزاء وقد عزت كرمت وعزه غلبه وفى المثل من عزيز أى من غلب سلب والعزيز الملك لغلبته على أهل مملكته وكان لقباً فى القديم لمن جمع فى ملكه بين مصر والإسكندرية وهو صفة من صفات الله تعالى » ومعناه الغالب على كل شيء الذى لا ينازعه ولا يماثله شيء (والحكيم) يقال أحكم الأمر أتقنه فاستحكم ومنعه من الفساد كحكمه والحكمة بالكسر العدل والعلم والحلم والنبوة ويقال حكم الفرس جعل للجامه حكمه بالتحريك وهى ما أحاط بفم الفرس والحكم بسكون الكاف القضاء والحاكم منفذ الحكم ويقال ســـورة محكمة أى غير منسوخة فهى ممنوعة من التغيير والتبديل فالمادة تدور على المنع لأن حكمة الحكيم تمنعه من الباطل والعبث والجهل وأحكام الشيء اتقانه وهو منع له عن الخروج عما يريده منه فمعناه فى الآية ذو الحكمة فيكون من صفات الذات أو المحكم للأفعال والأشياء فيكون على هذا من صفات الفعل وأصله محكم صرف عن مفعل بضم الميم إلى حكيم كما صرف من مسمع إلى سميع ومؤلم إلى أليم قاله ابن الأنبارى .

فمعنى الحكيم على هذا الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة لا وجوبا كما يقول المعتزلة بوجوب الصلاح والأصلح

على الله وإنما ذلك تفضل منـــه تعالى أوجبه على نفسه بمقتضى صفاته وختم الآية بهذا ينذر الكافرين المعاندين الذين تكبروا عن تسبيحه تعالى وتنزيهه لأن وصفه العزيز يحمل معنى الانتقام من مكلف لم يسبح له عناداً وكبراً كما أنه يبشر الطائعين المسبحين بالجنة والجزاء لأن هذا مقتضى الحكمة .

(له ملك) الملك بضم الميم العظمة والسلطان والملكوت صيغة مبالغة فى الملك وملاك الأمر قوامه الذى يملك به والملك محركة واحد الملائكة .

(يحيى) من أحيا الرباعى والإحياء إعطاء الحيـــاة وحياة كل شىء بحسب ما يراد منه فحياة الإنسان غير حياة الحيوان وغير حياة النبات ولكل حياة علامات تعرف بها كنفخ الروح وتردد النفس فى الحيوان وكنمو النبات وظهور ورقه وبراعمه ونحو ذلك فسبحانه وتعالى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . والذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون .

والفعل الثلاثى منه حيى كرضى حياة والحى ضد الميت وأحياه جعله حياً وحى على الصلاة أى هلم بفتح الياء وأقبل وفى المثل لا يعرف الحى من اللى أى لايعرف الحق من الباطل .

(ويميت) من أمات الرباعى فالمضارع منه مضموم الأول والثلاثى مات ويموت ويمات ويميت فهو ميت وهو ضد الحى ويطلق الموت ويراد به الذلة والعبودية ومنه قوله تعالى فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم . على أحد رأيين فى الآية . والميت مخففه الذى مات بالفعل والميت بالتشديد والمائت الذى لم يمت بعدُ جمعهُ أموات وموتى . والميتة بالتخفيف ما لم تلحقه الذكاة بالذال وهو الذبح الشرعى ولا يقال ما أموته لأن كل فعل لا يتأتى فيه التفاوت لا يتعجب منه إلا على معنى ما أموت قلبه لأن موت القلب درجات . والمتماوت الناسك المرائى .

(على كل شىء) والشىء معروف وجمعه أشياء وأشواى وتصغيره شيىء لا شوىٌ .

وعند الأشاعرة من المتكلمين الشىء هو الموجود وفى ذلك يقول اللقانى صاحب الجوهرة فى التوحيد :

وعندنا الشىء هو الموجود

وثابت فى الخارج الموجود

قال فى القاموس شئته أشاؤه شيئاً ومشيئة أردته والإسم الشيئة على وزن شيعة ، وكل شىء بشيئة الله تعالى . (قدير) يقال قدر يقدر قداراً من باب ضرب فهو قادر وقدير والتقدير

تدبير الأمر . والقدر محركة القضاء والحكم . والقدرية من أنكروا قدرة الله تعالى . وقدير صفة مبالغة من القدرة وهى الاقتدار .

وما قدروا الله حق قدره ما عظموه حق تعظيمه .

الأسرار البلاغية

ابتدأت سورة الحديد بعد البسملة المشتركة بين سائر السور بقوله سبحانه وتعالى « سبح لله » وقد ورد لفظ التسبيح فى سبع سور . الإسراء . والحديد . الحشر . الصف . الجمعة . التغابن . الأعلى . والتسبيح كلمة استأثر الله بها فهى من خواص الألوهية .

وقد استوعب القرآن الكريم صيغ التسبيح جميعها فبدأ بالمصدر فى سورة الإسراء لأن المصدر هو الأصل الذى ينشأ عنه كل الاشتقاقات كما هو رأى جمهور البصريين قال تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » ثم ثنى فى سورة الحديد والحشر والصف بالماضى لأنه أسبق الزمانين ولإفادة التحقق والوقوع ثم ثلث بالمضارع فى الجمعة والتغابن لإفادة التجدد والاستمرار

ثم بصيغة الأمر في سورة الأعلى . لحث العبد على الامتثال . وذلك الاستيعاب رمز لثبوت التنزيه لله تعــالى دائماً وأبداً وأزلا كذلك . واختار العلمية في قوله « سبح لله » لينصرف التنزيه إلى ذاته تعالى بعينه من غير إيهام اشتراك فإنه لو أتى بوصف بدل العلمية ، فقال مثلا سبح للرحمن ربما صرفه الكفار إلى غيره أو تجاهلوه فقالوا وما الرحمن أو قالوا لممدوحهم وآلهتهم سبحانك صلفا وكبراً كما قال قائلهم هـذا رحمان اليمامة ويريد مسيلمة الكذاب .

وقد يكون السر في اختيار العلمية قصد التعظيم بإثبات الألوهية أو أن الأمر يشبه أن يكون كدليل على الدعوى فلما قال سبح لله كأنه يقول لما كان إلها واحداً قادراً حكيما متصفاً بكل مايفيد الألوهية أو تقتضيه كان مستحقاً للتسبيح والتنزيه والتعبير بما هنا دون من مع أن التسبيح ظاهرا يكون من العقلاء للإشارة إلى عموم التسبيح من العقلاء وغيرهم ينبيء عن ذلك قوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » بعد قوله تعالى : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » مما يدل على تسبيح الحيوان والنبات والجماد والملك والجن وسائر خلق الله تعالى . والمراد من التسبيح

الدلالة بلسان الحال أى تدل هـــذه الأشياء بإمكانها وحدوثها وطرد النقص عليها والتغير فى أعراضها تدل دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته وتنزهه من لوازم الإمكان وتوابع الحدوث والتغير كما يدل الأثر على مؤثره ففى الكلام على هذا المعنى استعارة تبعية كما فى نطقت الحال بكذا تشبه دلالة الحوادث على كمال محدثها وتنزهه بالتسبيح بجامع الإبانة والإفصاح عن المقصود فى كل واشتق منه سبح بمعنى دل دلالة واضحة على وجود الله وكماله على سبيل الاستعارة التبعية لجريانها فى الفعل . والقرينة إسناد التسبيح للجماد ونحوه فإنه يدل على إرادة المجاز . أو يراد بالتسبيح ما يعم الحقيقة والمجاز فهو بالنسبة للعقلاء المؤمنين حقيقة وبالنسبة للجماد وغيره من الغافلين والكافرين مجاز فيراد به ما يعم الأمرين فتسبيح بعض على سبيل النطق وتسبيح البعض الآخر على سبيل الدلالة الحالية فيكون من باب عموم المجاز أو من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يجوز ذلك .

ويرى فريق كبير من العلماء على أن التسبيح حقيقى بلسان المقال يصدر عن كل شىء حتى الجماد غير أنهم قالوا أن نطق كل شىء بحسبه واعترض على ذلك بأن التسبيح الحقيقى لا يكون

إلا بعد العلم وهو لا يتصور فى الجماد لفقد شرطه العقلى وهو الحياة . ومَن تتبع الأحاديث والآثار رأى فيها ما يشهد لهذا الفريق الأخير شهادة لا تكاد تقبل التأويل . فقد روى سماع تسبيح الحصى فى كفه صلى الله عليه وسلم فقد ذكر الإمام القسطلانى فى كتابه المواهب اللدنية الجزء الأول معجزات النبى صلى الله عليه وسلم وذكر منها هذه المعجزة فقال : روى أبو ذر قال : تناول النبى صلى الله عليه وسلم سبع حصيات فسبحن فى يده حتى سمعت لهن حنيناً ثم وضعهن فى يد أبى بكر فسبحن ثم وضعهن فى يد عمر فسبحن ثم وضعهن فى يد عثمان فسبحن أخرجه الطبرانى فى الأوسط وحديث تسبيح الحصى فى كفه صلى الله عليه وسلم مشهور على ألسنة الناس لكن إسناده ضعيف .

وقد أخرج البخارى من حديث ابن مسعود قال : كنا نأكل مع النبى صلى الله عليه وسلم ونحن نسمع تسبيح الطعام . ومن ذلك تسليم الحجر عليه صلى الله عليه وسلم فقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه من طريق جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن . فإذا ثبت لدينا نطق الجماد بهذه الآثار وأمثالها فلا نستبعد تسبيح كل شىء حتى الجماد بلسان

المقال غاية ما فى الأمر أن تسبيح كل شىء بحسب استعداده ويشير إلى هذا قوله تعالى : « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن » فلو كان هذا تسبيح دلالة فأى تخصيص لداود عليه السلام .

والتقديم للجار والمجرور فى قوله لله على الفاعل للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن المهم فى هذا الأمر إثبات التسبيح لله لا لكون التسبيح صـــادراً من كذا أو كذا وللمسارعة إلى ذكر لفظ الجلالة والتلذذ به والتبرك بالنطق باسمه تعالى .

ولا يخفى عليك أن بين السموات والأرض طباقا أو مطابقة لأن بين معنيهما تقابلا فإن السماء كل ما علا والأرض كل ما سفل وهو طباق من نوع واحد لأن كلا منهما اسم وهو من المحسنات المعنوية . والسر فى تقديم السموات على الأرض تقدم السموات على الأرض فى الخلق كما هو ظاهر من قوله تعالى : « السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها » . وكذلك السماء أشرف من الأرض لعدم وقوع المعاصى فيها ولأن العلو غالباً أشرف من السفل ولأن السماء مسكن الملائكة وفيها البيت المعمور وغير ذلك من أسباب الرفعة والسمو فإن قال قائل إن الأرض خلق قبل السماء لقوله تعالى : « أئنكم

لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين » قلنا إن الخلق فى الآية بمعنى التقدير فلا يستلزم وجود أحدهما قبل الآخر . وعلى كل فقد عرفت أسراراً كثيرة لتقديم السموات على الأرض فى الذكر .

فإن قلت بعض آيات القرآن تقدم فيها ذكر الأرض على ذكر السماء كقوله فى سورة البقرة : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء » قلنا لكل مقام مقال .

فالسر فى ذلك فى آية البقرة أنه مقام تعداد النعم على الخلق ونعم الأرض أمس بهم وأظهر لهم فقدم ذكرها مسارعة فى تبشيرهم وحثهم على شكر النعم . وأما فى مواضع أخرى كسورة الحديد والنازعات فالمقام مقام إثبات القدرة وخلق السماء أظهر فى القدرة من خلق الأرض فقدم ما هو أدل على كمال القدرة فعبر فى كل موضع بما يناسبه والسر فى جمع السموات وإفراد الأرض الإشارة إلى أن العلويات كثيرة متعددة لا يمكن حصرها تحت جنس واحد لعظمها وكثرة أنواع المقدورات بها بخلاف الأرض ، وقد تعلق

بذلك من قال بأن السموات طباق منفصل عن بعضها بخلاف الأرض فهى وحدة متصلة وإن كانت من طبقات مختلفة كالجير والحديد والكبريت وغير ذلك . وقد عرفت قيمة هذا الرأى .

وأل فى السموات والأرض للعهد أى السموات التى تظلكم وترونها أو تعرفون نموذجاً منها وهى السماء الدنيا ومثلها باقى السموات وكذلك الأرض التى تعيشون عليها وتعرفون طرائقها .

وتعريف الطرفين فى قوله تعالى : « وهو العزيز الحكيم » لإفادة القصد والسر فى اتباع العزيز بالحكيم لأن العزيز كما عرفت هو الغالب الذى لا يقاوم إرادته أحد فربما توهم الكافر أن الله سيف مصلت على العباد كالملك الجبار الظالم فأتبعه بالحكيم ليبين أن عزته مصحوبة بالحكم وأن بطشه مبنى على العدل ووضع الأشياء فى مواضعها والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله مشعر بعلة الحكم وتقديم الجار والمجرور فى قوله : « له ملك السموات والأرض » لإفادة القصر لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر أى أنه له لا لغيره ملك السموات والأرض .

والفصل فى قوله : له ملك السموات والأرض للاستئناف لأن الجملة الثانية كالجواب لسؤال نشأ من الأولى فإن الله لما

أثبت أن جميع ما فى الكون يسبحه كأن قائلا قال ما سبب هذا الإجماع على تنزيه الله أو ما دليل استحقاق الله لهذا التسبيح فقال له ملك السموات والأرض الآية وهو ما يسميه البلاغيون شبه كمال الاتصال. وكذلك الفصل فى يحيي لكمال الاتصال لأنه تقرير لكونه مالك السموات والأرض وبيان له أما الوصل بين يحيي وجملة يميت فلاتفاقهما فى الخبرية فبينهما التوسط بين الكمالين وهو من مواضع الوصل وبين يحيي ويميت مقابلة بالتضاد وهو طباق من المحسنات البديعية ولم يذكر متعلق الإحياء والإماتة لأن القصد إثبات الفعل فنزل منزلة اللازم : وكذلك الوصل فى قوله وهو على كل شىء قدير لاتفاقهما فى الخبرية . وتقديم الجار والمجرور فى قوله على كل شىء للمسارعة إلى التعميم والتشويق إلى المؤخر. والتنكير فى شىء للتعميم. أى أنه قادر على جميع الأشياء صغيرها وكبيرها دقيقها وجليلها .

الأبحاث العامة

تعود الذاكرون لله أن يقدموا فى ذكرهم التسبيح على التحميد فيقولوا سبحان الله والحمد لله، وفى ختام الصلوات يقولون عقبها بالترتيب سبحان الله والحمد لله والله أكبر وقد أخذوا هذا الترتيب

من ظواهر النصوص فى الكتاب والسنة فالله يقول: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» من سورة الإسراء ففيه إشارة إلى البدء بالتسبيح ثم يثنى بالتحميد ليكون التحميد متصلا وملابساً للتسبيح كما تفيده الباء فى قوله بحمده وكذلك فى سورة الحجر قوله تعالى: «فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين».

وقال تعالى: «واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم». قال الشيخ الألوسى فى تفسيره أى قل سبحان الله ملتبسا بحمده تعالى على نعمائه التى لا تحصر والمراد سبحه تعالى وأحمده حين تقوم من كل مجلس وقد صح من رواية أبى داود والنسائى وغيرهما عن أبى برزة الأسلمى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول إذا أراد أن يقوم من المجلس : —

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك فسئل عن ذلك فقال كفارة لما يكون فى المجلس.

وقيل حين تقوم إلى الصلاة قال سعيد بن المسيب : —

حق على كل مسلم حين يقوم إلى الصلاة أن يقول سبحان الله وبحمده لأن الله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : «وسبح بحمد ربك حين تقوم» وكذلك أخرج سعيد بن منصور عن

الضحاك أنه قال حين تقوم إلى صلاة تقول هؤلاء الكلمات « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك » ونسبه إلى ابن عباس وأخذ به أبو حنيفة فجعله من دعاء الافتتاح بعد تكبيرة الإحرام .

وكذلك فى قوله تعالى فى سورة النصر : « فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » أى قل سبحان الله والحمد لله واستغفر الله وتب إليه لأنه الغفار التواب وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده : سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك يتأول هذه السورة ويعمل بها كما أمر .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس رواه مسلم عن أبى هريرة وأصرح من ذلك كله ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ولهم فضل من أموال يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون فقال ألا أعلمكم شيئاً تدركون من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم قالوا بلى يارسول الله

قال تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صـــلاة ثلاثة وثلاثين . وأيضاً الترتيب العقلي يقضى بتقديم التسبيح على التحميد لأن التسبيح إبعاد النقائص عن الله وتنزيهه عنها والحمد إثبات الكمال لله ووصفه بالجميل على جهة التفضيل . فالتسبيح من قبيل التخلية والحمد من قبيل التحلية والأولى مقدمة على الثانية إلا أني أرى أن هذا الترتيب غير لازم فكل من التسبيح والتحميد ذكر لله تعالى فبأيهما بدأت فأنت من الذاكرين . وقد أورد الإمام ابن حجر صاحب فتح البارى على البخارى روايات تخالف هذا الترتيب ثم قال وهذا الاختلاف دال على أن لا ترتيب فيها ويستأنس لذلك بما روى عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الكلام بعد القرآن أربع لا يضرك بأيهن بدأت : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر رواه مسلم والنسائى قال ابن حجر ولكن يمكن أن يقال الأولى البداءة بالتسبيح لأنه يتضمن نفى النقائص عن البارى سبحانه ثم التحميد لأنه يتضمن إثبات الكمال له إذ لا يلزم من نفى النقائص إثبات الكمال ثم التكبير إذ لا يلزم من نفى النقائص وإثبات الكمال أن يكون هناك كبير آخر ثم يختم بالتهليل وهو قول لا إله إلا الله الدال على انفراده سبحانه وتعالى بجميع ذلك .

وفضل التسبيح عظيم فهو ذكر من أعظم أنواع الذكر والله يقول والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم رواه البخارى فى آخر كتابه ليكون مسك الختام وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلساً قال عند قيامه منه سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وقال من فعل ذلك : غفر له ما كان فى مجلسه رواه الترمذى والحاكم وصححاه وقد أشرنا إلى رواية أبى داود والنسائى سابقاً .

خلاصة المعنى

إن الكون كله علويه وسفليه عاقله وجماده وما بين ذلك يدل دلالة واضحة المعالم بينة الإشارة على أن الله المتصف بكل كمال هو أيضاً منزه عن كل نقص فكل ما يتصل بالحوادث وما يقتضى التغير محال على الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فهو المتصف بالعزة والغلبة على كل شىء لا يقع فى ملكه إلا ما يريد ولا معقب لحكمه ولا راد لقضائه كل ذلك مع الحكمة البالغة والعدل التام .

وقد استحق سبحانه هذه الصفات الكاملة وتنزه عن النقائص كلها فوجب تسبيحه وتقديسه لأنه مالك الكون كله من سماء وأرض وما بينهما وبيده الإحياء والإماتة وله القدرة التامة على سائر خلقه . والذى يجب على المكلفين إزاء هذه النصوص أن يسبحوا الله ويقدسوه حتى يقوموا ببعض شكره ويسيروا فى مواكب المسبحين من أهل السموات والأرض بل من سائر خلق الله تعالى من الحيوان والجماد والنبات والجن والملائكة ومن لا يعلم أشخاصهم وذواتهم إلا الله الذى خلقهم وليكن صدور التسبيح منهم بإخلاص من قلوبهم لأن الرياء والنفاق يحبطان الأعمال قال تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

وقال : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

والرسول صلى الله عليه وسلم يحارب الرياء ويذمه ذماً شديداً حتى جعله من أنواع الشرك فقد ثبت عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه رواه مسلم .

قال الله تعالى:

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝

إن أسمى ما نبدأ به فى شرح هذه الآية هو ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن قوله يقدم على قول كل قائل: فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو عند النوم اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شىء منزل التوراة والإنجيل والفرقان خالق الحب والنوى لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته: اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر فترى أنه عنى بالظاهر الغالب وبالباطن الوحدانية والعلم فليس إله غيره وليس حجاب يحجبه، ومن العلمـــاء من وقف عند تفسير الرسول فقال الأول هو السابق على جميع الموجـودات فهو سبحانه موجود قبل كل شىء حتى الزمان لأنه عز وجل الموجد

والمحدث للموجودات والآخر هو الباقي بعد فناء الموجودات حقيقة عند الصعقة الأولى التي يشير الله إليها بقوله : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض » ويمكن أن يقال إن الفناء واقع على كل ممكن نظراً إلى ذاته مع قطع النظر عن مبقيه فإن جميع الموجودات الممكنة إذا قطع النظر عن علتها فهي فانية . وعلى هذا المعنى يجاب عن إشكال ورد خلاصته كيف تثبت أن الله هو الآخر مع أن أهل السنة يقولون ببقاء أهل الجنة في الجنة وبقاء أهل النار في النار إلى ما لا نهاية كما هو مقتضى النصوص من مثل قوله تعالى : « خالدين فيها أبداً » وقوله تعالى : في حق أهل النار « يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم » لأن فناءها في حد ذاتها أمر لا ينفك عنها .

وقد فسر مقاتل قول الرسول (فليس دونك شيء) أي فليس أقرب منك شيء وأيد كلامه بما أخرجه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات قال هو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء والظاهر فوق كل شيء والباطن أقرب من كل شيء . قال وإنما يعني القرب بعلمه وقدرته .

وأنا أرى أن حمل الحديث والآية على هذا المعنى فيه إشكال

وربما يوهم الحدوث لله ولذلك ورد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا هذا الله كان قبل كل شيء فماذا كان قبل الله فإن قالوا لكم ذلك فقولوا هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم .

فالأول عندى أن تحمل أمثال هذه النصوص على أنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه مع استحالة ما يوهمه ظاهر النصوص وتفويض المعنى الحقيقى إلى الله .

ومن العلماء فريق آخر لم يقف عند تفسير الرسول ولا عند كونه من المتشابه فخاض فى مجاهل كما سترى فقال بعضهم الأول هو الذى تبتدىء منه الأسباب إذ هو سبحانه هو الذى جعلها أسباباً والآخر هو الذى تنتهى إليه المسببات فالأولية على هذا صفة ذاتية والآخرية بمعنى أنه تعالى إليه المرجع والمصير بقطع النظر عن بقاء أهل الجنة وأهل النار الثابت بالأدلة .

وقال الغزالى الأول بمعنى أن الموجودات استفادت الوجود منه وأما هو عز وجل فموجود بذاته وما استفاد الوجود من غيره سبحانه وتعالى عن ذلك وهو الآخر بمعنى أن كل معرفة تحصل قبل معرفته تعالى فهى مرقاة إلى معرفته عز وجل والمنزلة

القصوى هى معرفة الله عز وجل فهو سبحانه بالإضافة إلى هذه المعارف آخر .

وفسر هذا الفريق الظاهر بأنه ظاهر بوجود دلائل وجوده وقال آخرون إن كل موجـود ظاهر بظهوره وفسر الباطن بأنه باطن بكنهه وحقيقته فلا تحوم حوله العقول ولا تصل إلى معرفة حقيقة ذاته وقال الزمخشرى إن الباطن الذى لايدرك بالحواس فالله سبحانه وإن كان ثابتاً أن المؤمنين سيرونه فى الآخرة إلا أنها رؤية من غـــير إدراك ولا إحاطة فالله يقول : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » الآية من سورة الأنعام . وفسر الأزهرى الظاهر والباطن بمعنى العالم لما ظهر وبطن .

المفردات اللغوية والأسرار البلاغية

قال فى مختار الصحاح : الأول ضد الآخر وأصله أوأل على وزن أفعل مهموز الأوسط قلبت الهمزة واواً وأدغم دليله قولهم هذا أول منك وجمعه أوائل وقال قوم أصله وول على وزن فوعل فقلبت الواو الأولى همزة وهو إذا جعلته صفة لم تصرفه تقول لقيته عام أول من غير تنوين وإذا لم تجعله صفة صرفته تقول لقيته عاماً أولا بالتنوين وفعله ثلاثى تجده فى مادة وأل

ويقال وأل بمعنى لجأ ومنه الموئل قال فى شرح القاموس وقد يجيء الأول بمعنى غير المسبوق بمثله .

والآخر بكسر الخاء بعد الأول وهو صفة تقول جاء آخراً أى أخيراً ووزنه فاعل والانثى آخره والجمع أواخر أما الآخر بفتح الخاء فهو أحد الشيئين والأنثى أخرى . وآخرة العين ومؤخرتها ما ولى اللحاظ ومؤخرة الرحل خلاف قادمته والآخرة والأخرى دار البقاء ويقال جاء فى أخريات القوم أى أواخرهم .

والظاهر خلاف الباطن وهو من أسماء الله تعالى والظاهرة أن ترد الإبل كل يوم نصف النهار فى الظهيره والظهر خلاف البطن وهو مذكر . وخفيف الظهر قليل العيال وثقيله كثيره وهو على ظهر مزمع للسفر .

قال أهل اللغة : البطن خلاف الظهر مذكر جمعه أبطن وبطون ورجل بطين عظيم البطن وقد بطن بضم الطاء والمبطون من يشتكى بطنه واستبطن أمره وقف على دخيلة أمره قوله تعالى هو الأول إخراج للكلام على مقتضى الظاهر فإنه لما تقدم ذكره تعالى فى قوله سبح لله مافى السموات والأرض كان المقام هنا مقام إضمار وفى الجملة حصر لأنها معرفة الطرفين ففيها قصر موصوف على صفة وجميع الصفات بعدها معطوفة عليها بالواو لدخولها فى حيز المحكوم به

والواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية والثالثة معناها الدلالة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموعتين المجموعة الأولى الأولية والآخرية معاً والمجموعة الثانية الظاهرية والباطنية فهو جامع بين مجموع الصفتين الأولين ومجموع الصفتين الأخريين فهو سبحانه دائم الوجود فى جميع الأوقات الماضية والآتية وهو فى جميعها ظاهر وباطن وآل فى كل اسم للتعريف والمراد به الكامل فى كل وصف من الأوصاف المذكورة وتقديم المتعلق فى قوله بكل شىء على الخبر للمسارعة إلى التعميم وشمول العلم وللتشويق إلى المؤخر والتنكير فى شىء لتأكيد العموم فى كل ليشمل العلم بجميع المعلوم سواء ماجل وما دق وما ظهر وما خفى يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور .

وعلم الله صفة ثابتة أزلية قائم بذاته تعالى ينكشف بها المعلوم على ماهو عليه من غير تأثير لأن التأثير صفة القدرة والله يعلم جميع الأشياء علويها وسفليها كليها وجزئيها يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ومن هذه الآية نستنبط أن العبد يجب أن يعتقد بأن مشيئته مسبوقة بمشيئة الله قال تعالى : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » ويعتقد

أن مرجعه إلى الله وأن خفايا قلبه وباطن سريرته معلوم لله فيجب عليه أن يسعى فى تنفيذ أوامر الله وأن يبتعد عما نهى الله عنه فإن نتيجة العلم الجزاء .

قال الألوسى فى تفسيره : التذييل بقوله تعالى : « وهو بكل شىء عليم » لئلا يتوهم أن بطونه تعالى عن الأشياء يستلزم بطونها عنه عز وجل كما فى الشاهد . وقد جاءت فاطمة رضى الله عنها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله خادماً يعينها على بيتها فعلمها الدعاء السابق المروى عن أبى هريرة اللهم رب السموات السبع إلخ . فدل ذلك على ما لهذا الذكر من حفظ ومعونة حسية ومعنوية .

قال الله تعالى :

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٭

المفردات اللغوية

الخلق التقدير والخالق من صفاته تعالى هو المبدع للشيء المخترع على غير مثال سبق ويقال خلق الإفك افتراه لأنه في معنى الاختراع والاختلاق وإيجاد أخبار لم تحصل والخليقة الطبيعة وخلق الثوب كنصر وكرم وسمع خلقاً بتحريك اللام بلى وفى الخلق بالتحريك البالى للمذكر والمؤنث والخلاق كسحاب النصيب الوافر من الخير . والخلق بضمتين السجية

ومضغة مخلقة تامة الخلق . وستة أنث العدد لأن المعدود وهو اليوم مذكر وابن مالك يقول :

ثلاثة بالتاء قل للعشرة   فى عد ما آحاده مذكر

وست أصله سدس فأبدل السين تاء وأدغم فيه الدال فالتقيا عند مخرج التاء فغلبت عليها وإن شئت قلت أبدل من إحدى السينين تاء والدليل على ذلك أنه يقال فى تصغيرها سديسة وفى الجمع أسداس والجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها ويقولون جاء فلان سادساً وسادتا وساتا واليوم من الشروق إلى الغروب وقيل من الفجر الصادق إلى غروب الشمس ويطلق ويراد به النهار والليل وأيام الله نعمة ويام قبيلة باليمن وابن نوح غرق فى الطوفان وربما عبروا عن الشدة باليوم يقال يوم أيوم كما يقال ليلة ليلاء وأيام أصله أيوام اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت فى الياء وتأنيث الجمع أكثر فيقال أيام مباركة والعرب قد تطلق اليوم وتريد الوقت والحين نهاراً كان أو ليلا فتقول ذخرتك لهذا اليوم أى لهذا الوقت الذى افتقرت فيه إليك . (ثم) حرف عطف للترتيب وقد تأتى بمعنى الواو نحو قوله تعالى : « ثم الله شهيد على ما يفعلون » فإن شهادة الله غير حادثة وأما ثَم بفتح الثاء

فهى اسم إشارة إلى مكان غير مكانك والثمام بوزن غراب نبت يستعمل فى بناء الأكواخ .

وفى القاموس ثم بالضم حرف يقتضى ثلاثة أمور التشريك فى الحكم وقد يتخلف بأن تقع زائدة كما فى قوله تعالى : « أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم » الثانى الترتيب وقدلا تقتضيه كقوله عز وجل : « وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة » والثالث المهملة وقد تتخلف كقولك أعجبنى ما صنعتَ اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب لأن ثم فيه لترتيب الأخبار ولا تراخى بين الإخبارين .

استوى . الاستواء فى كلام العرب العلو والاستقرار قال الجوهرى فى الصحاح استوى من اعوجاج واستوى على دابته واستوى إلى السماء أى قصد واستوى استولى واستوى الرجل أى انتهى شبابه ومنه قوله تعالى : « فلما بلغ أشده واستوى » وقد يأتى بمعنى علا واستدل عليه بقول الشاعر :

فأوردتهم ماء بضيفاء قفره ... وقد حلق النجم اليمانى فاستوى

أى علا وارتفع . والعرش سرير الملك وفى القرآن نكروا لها عرشها وقال تعالى : « ورفع أبويه على العرش » ويقال ثل

عرش فلان إذا ذهب ملكه وسلطانه . والعرش بمعنى الملك ومعنى استوى على العرش حينئذ ما استوى الملك إلا له . والعريشة الهودج . قال فى القاموس العرش عرش الله تعالى ولا يحد والعز وقوام الأمر وعرش البيت سقفه . ولج من باب وعد فهو مثال واوى الفاء تحذف فى المضارع والمصدر ولوجاً أى دخل والوليجة البطانة وهى خاصتك من الرجال وهو فعل لازم يحتاج إلى الحرف عند تعلق المفعول به قال فى شرح القاموس ظاهر كلام سيبويه أن ولج من الأفعال المتعدية ولا قائل به فإن أراد تعديته للظرف كولجت المكان فهو كدخلت ونحوه من الأفعال اللازمة التى تنصب الظرف وإن أراد أنه يتعدى لمفعول به صريح كضربت زيداً فلا يصح ولا يثبت وقد نسبه إلى الوهم كثير من شراح الكتاب .

(يعرج فيها) من عرج من باب قتل والمعرج والمصدر والمرقى كلها بمعنى واحد والجمع المعارج وأما عرج من باب تعب فمعناه أصابته علة لازمة منعته من استقامته فى مشيته قال فى القاموس عرج عروجاً ومعرجاً ارتقى فإن كانت العلة غير لازمة صح أن يقال عرج بفتح الراء والمعراج والمعرج السلم وثوب معرج أى مخطط فى التواء (وأينما) ظرف مكان وقد تقع أين استفهاماً تقول : أين محمد فيلزم

الجواب بتعيين مكانه وقد تقع أينما شرطاً وتكون ما زائدة نحو أينما تصل أصل معك مع حذف حرف العلة فى الفعلين وهو الياء والآين الحين ومصدر آن يئين أى حان ويطلق الأين ويراد به الإعياء والآن الوقت الذى أنت فيه .

الأسرار البلاغية

فصل جملة هو الذى خلق عما قبلها على سبيل الاستئناف البيانى الذى يعبر عنه البلاغيون بشبه كمال الاتصال لأنه لما ذكر أنه مالك السموات والأرض وأنه يحيي ويميت وأنه قادر عالم كأن سائلا يسأل ما دليل اتصافك بهذه الصفات من القـــدرة والعلم وغيرهما فقال جواباً عن ذلك هو الذى خلق السموات الآية وعبر باسم الموصول لأنه يفيد التفخيم ولأنه يشعر بأن الصلة معهودة للمخاطبين وذلك لأنهم كانوا يقرون بذلك رغم كفرهم وعنادهم مصداق ذلك قول الله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » وربما جعل ذريعة إلى التعريض بالتعظيم لشأنه كأنه يقول : « إن من شأنه خلق السموات والأرض يعلم ما يلج فى الأرض .. الآية » .

وتعريف الطرفين فى قوله : (هو الذى يفيد القصر) أى هو لا غيره المختص بذلك الخلق وتلك القدرة الباهرة . وذكر المسند

إليه ضميراً لأن المقام مقام الإضمار لتقدم ذكره فالكلام مخرج على مقتضى الظاهر وذكر المسند إليه لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه وعبر بالخالق لما فيه من معنى التقدير والتسوية فهو يشير إلى أن الله خالق السموات والأرض على قدر معلوم وتدبير محكم وبعد عن العيوب ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور وتشتق ولم يقل جعل السموات لأن الجعل فيه معنى التضمين أى كونه حاصلا من شيء آخر كأنه فى ضمنه ولذلك عبر فى سورة الأنعام بقوله : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » لأن أحداث النور والظلمة لا ينشأ إلا عن شيء آخر معروف لدى علماء الفلك والجغرافيا . واختار التعبير بالماضى لأنه تحقق ووقع بالفعل فى زمن مضى . وقد عرفت السر فى جمع السموات وإفراد الأرض والسر فى تقديم السموات غالباً على الأرض وقال الشيخ الألوسى فى هذا المقام للإشارة إلى تفاوتهما فى الشرف فجمع الأشرف اعتناء بسائر أفراده وأفراد غير الأشرف وأشرفية السماء لأنها محل الملائكة المقدسين على تفاوت مراتبهم وقبلة الدعاء حينما يرفع الناس أكفهم مبسوطة إلى السماء وهى أيضاً معراج الأرواح الطاهرة ولعظمها وإحاطتها بالأرض ولعظم آيات الله فيها . وتخصيص خلق السموات والأرض بالذكر دون سائر المخلوقات لاشتمالها

على جملة الآثار العلوية والسفلية وفيها عامة النعم والآلاء الجلية والخفية . والمراد بالأيام فى قوله ستة أيام هى أيام الدنيا المعروفة أى خلقها فى هذا القدر وإن لم يكن هناك شروق ولا غروب فى وقت الخلق كما فى قوله تعالى فى وصف أهل الجنة : « لهم رزقهم فيها بكرة وعشياً » وإن لم يكن فى الجنة شمس ولا قمر يتناوبان دائبين كما فى الدنيا . أو المراد باليوم الوقت مطلقاً أى خلقها فى ستة أوقات ونقل القشيرى عن ابن عباس وزيد بن أرقم أن المراد بالأيام أيام الآخرة التى تشير إليها الآية الكريمة فى قوله تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » . الآية من سورة السجدة .

واختار كثيرون الرأى الأول وهو أنها من أيام الدنيا واستدلوا على رأيهم بما أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الإثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وخلق فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى

الليل . والحكمة فى كون الله سبحانه مع قدرته العظيمة خلقها فى أيام متعددة — وقد كان فى قدرته أن يقول لها كن فتكون — تعليم للخلق التثبت والتأنى فى أمورهم وهو دليل على صفة الاختيار الثابتة لله تعالى لأنهـا لو خلقت دفعة واحدة فربما قال الكافرون والفلاسفة إنها نشأت عن الله نشوء المعلول عن العلة من غير اختيار وإرادة كما يتحرك الخاتم بتحرك الإصبع وكما ينشأ الضوء عن طلوع الشمس فأراد الله خلقها فى أوقات متعددة ليبين أن اختيار الوقت من حكم الله تعالى البالغة لأن تخصيص الممكن بزمن معين وحالة خاصة يوجد فيها ويتشخص إنما هو دليل قوى على الإرادة الإلهية والاختيار التام ومن الحكم أيضاً فى خلقها تدريجياً اعتبار وعظة للمفكرين فى خلق الله حيث يثبتون فى هذا التدرج أنه لم تخلق هذه الأشياء مصادفة واتفاقاً وإنما خلقت تنفيذاً لإرادة كريمة .

فإن قلت ما السر فى هذا العدد وهو ستة أيام ولم لم تكن خمسة أو سبعة قلت أن هناك أشياء استأثر الله بعلمه فيها فلم يطلع عليها أحد أنبيائه ولا أحد خلقه وهذا الموضع منها . وله أمثلة كثيرة كعدد ركعات الفرائض وعدد حصى الجمرات ونحو ذلك وفيه يظهر إيمان المؤمن حيث يسلم لله مع عدم معرفته بالحكمة

وهـو ما يسمونه بالحـكم التعبدى وقد خاض بعضهم فى معرفة سر هذا العدد فقالوا إن للسماء والأرض مادة وصورة وتعلقاً . خلق الله مادة السماء فى يوم وصـورها فى يوم وربط بعضهـا ببعض من جهة المنافع والطبائع فى يوم ثالث وكذلك خلق مادة الأرض فى يوم وصورها فى يوم وربط بعضهـا ببعض فى يوم فهذه ستة أيام واستأنس بآيات فصلت فى قوله تعالى « أئنكم لتـكفرون بالذى خلـق الأرض فى يومـين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيهـا رواسى من فوقها وبارك فيهـا وقدر فيهـا أقواتها فى أربعة أيام سـواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيـا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينـا السماء الدنيـا بمصابيح وحفظا ذلك تقـدير العزيز العليم » .

والتعبير بثم فى قوله ثم استوى على العرش للتراخى الرتبى لأن العرش أعظم من السـموات لأنه محيط بهـا وقد ورد فى الحديث ما السموات السبع والأرضون السبع فى جنب العرش إلا كحلقة ملقاة فى فلاه . ومن هـــذا تعلم السر فى تخصيص العرش بالذكر دون غيره قال الراغب أن العرش مما لا يعلمـه

البشر إلا بالإسم وقد سئل الإمام مالك عن هذه الآية فأطرق رأسه مليا حتى علته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال : الاستواء معلوم غير مجهول والكيف غير معقول هو كما قال ووصف نفسه ولا يقال له كيف وكيف عنه مرفوع . والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ثم قال للسائل وما أظنك إلا ضالا تقصد الفتنة ثم أمر به فأخرج من المسجد النبوى فذهب مالك أننا نحيل الظاهر الذى لا يليق بالله سبحانه ونفوض المعنى المراد إلى الله سبحانه كما هو شأن السلف الصالح رضوان الله عليهم فى متشابهات القرآن كلها كما قالوا فى يد الله فوق أيديهم ولتصنع على عينى وأمثال ذلك من المتشابهات التى استأثر الله بعلمها وقال : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » . فهم يقولون استوى على العرش على الوجه الذى أراده سبحانه منزهاً عن الاستقرار والتمكن . وذهب المعتزلة إلى أن استوى بمعنى استولى واحتجوا عليه بقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

ولكن يرد عليه بأن العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى. وإنما يقال استولى على كذا إذا لم يكن فى ملكه ثم ملكه. واستولى عليه والله تعالى لا يغالبه أحد حتى يغلبه ويستولى عليه ورأى آخرون بأن استوى بمعنى قصد ويرده أن التعدية هنا بعلى ولو كان بمعنى قصد لعدى بإلى كما فى قوله ثم استوى إلى السماء وهى دخان .

ومن العلماء من يجعل الإسناد مجازياً ويقدر فاعلا فى الكلام أى استوى أمره ، وهو كما ترى تأويل لا نص فيه ، وهناك آراء أخرى لا تساوى عناء بحثها .

وفصل جملة يعلم ما يلج فى الأرض عما قبلها لأنها تقرير لما سبق من استوائه على العرش وتدبيره لسائر الخلق فالجملة بمثابة التأكيد والبيان لما قبلها وهو ما يسميه البلاغيون كمال الاتصال .

والمراد بما يلج فى الأرض كل ما يدخل فى بطنها من ذرات الهواء وقطرات الماء ، وسائر الكنوز والدفائن ، فيشمل ما يدفن فيها من الأموات وما يغوص فيها من جذور النبات والمراد بما يخرج منها البراكين وأغصان النبات وماء العيون والآبار .

وقد رأى بعض العلماء أن يخص المراد بما يلج فى الأرض بالموتى فقط وأن يخص ما يخرج منها بالمعادن كالذهب والفحم والنحاس والبراكين الثائرة التى تقذف بالحمم من جوفها .

والأولى التعميم فى المعنى ليشمل كل ما يدخل فى الأرض ويتخلل أجزاءها وكل ما يخرج منها حتى يعم النطفة والحيوان لأن الجميع من التراب .

والمراد بما ينزل من السماء الملائكة والوحى والمطر وكل ما قدر الله فى السماء ليحدث على الأرض كالأرزاق والصواعق ، والمراد بما يعرج فيها الملائكة أيضاً فإن بعضهم مكلف بإنزال أوامر ثم العروج لتلقى أوامر أخرى كما يشير إليه قوله تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » وكذلك يشمل أعمال العباد وأدعيتهم كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

وإن توسعنا فى معنى السماء وأردت بها المعنى اللغوى العام وهو كل ما علا فهو سماء جعلت الأبخرة التى تتصاعد فتكون سحاباً من ضمن ما يعرج ولكن ذلك بعيد .

والسر فى ذكر أحوال الأرض قبل أحوال السماء هو الترقى من الأدنى إلى الأعلى . ولأن ما يتصل بالأرض ظاهر للناس بخلاف ما يعرج فإنه يخفى أكثره .

فإن قلت إن الفعل عرج يتعدى بإلى كما فى قوله : « تعرج الملائكة والروح إليه؟ » قلت فى الآية هنا روعى المكان الذى يسير فيه العروج وفى سورة المعارج روعى من ينتهى إليه العروج ، وقد جمع بين المعنيين فى قوله : « تعرج إليه فى يوم » فنظر إلى المنتهى أولا فعداه بإلى ونظر إلى زمانه فعداه بفى ، وقيل هو من قبيل التضمين فقد ضمن عرج معنى سار أو استقر فعداه بفى ، وأنت تعلم أن بين الولوج والخروج وبين النزول والعروج وبين السماء والأرض طباقاً وهو من المحسنات البديعية .

والرأى عندى أن الله سبحانه عبر بقوله : « يعرج فيها » دون قوله يعرج إليها ليشمل ما يعرج بين السموات بعضها إلى بعض ، وكذلك يشمل ما يعرج بين أجزاء كل سماء ، وهناك وحى يختص بأهل كل سماء ، وهناك ملائكة تتردد بين السماء السابعة والعرش فقط ولا تنزل إلى الأرض فهؤلاء يقال لهم عرجوا فى السماء ولا يقال عرجوا إليها ، فالتعبير بفى يشمل العروج من الأرض إلى السماء كما يشمل العروج بين أجزاء السماء الواحدة والمراد

بالمعية فى قوله : « وهو معكم أينما كنتم » معية العلم والإحاطة وهو من المتشابه الذى مر الكلام عليه فهو سبحانه مطلع على عباده فى أى مكان حلوا فيه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : لفظ المعية فى قوله تعالى : « وهو معكم » ثبت تفسيره عن السلف بالعلم قالوا هو معهم بعلمه ، وقد ذكر الإمام ابن عبد البر وغيره أن هـــذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يخالفهم أحد يعتد بقوله وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك ومقاتل وسفيان الثورى وأحمد بن حنبل روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى تفسيره هذه الآية قال هو على العرش وعلمه معهم وقد بسط الإمام أحمد الكلام على المعية فى كتابه (الرد على الجهمية) .

ولفظ المعية فى كتاب الله جاء عاما لجميع الخلق كما فى هذه الآية وجاء خاصاً كما فى قوله تعالى : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » وقوله فى شأن موسى وهارون « إننى معكما أسمع وأرى » وقوله فى شأن أبى بكر « لا تحزن إن الله معنا » فلو كان المراد أن ذاته تعالى تكون مع كل شىء لكان التعميم يناقض التخصيص فإنه قد علم أن قوله لا تحزن إن الله معنا أراد به تخصيصه وأبا بكر دون عدوهما من الكفار ، والناظر

فى سياق الآية التى معنا وسياقها يجد أن الله افتتح الآيات بالعلم وختمها بالعلم فـكان الظاهر فى قوله : « هو معكم أينما كنتم » أى بعلمه ا هـ .

قال الإمام موفق الدين بن قدامة الأندلسى فى كتاب : « ذم التـأويل » فإن قيل أنتم سلفيون تمنعون التـأويل فـكيف أولتم هنا ؟ .

قلنا نحن لم نتأول شيئاً فإن حمل اللفظ على ظاهره المتبادر منه لا يعـد تأويلا لأن التـأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره ، وهذه المعانى هى الظاهر من هذه الألفاظ بدليل أنه المتبادر إلى الأفهام منها ; ولذلك كان ظاهر الأسماء العرفية المجاز دون الحقيقة كإسم الراوية والظعينة ، وكذلك الألفاظ التى لها عرف شرعي وحقيقة لغوية كالوضوء والصلاة والزكاة فإنما ظاهرها العرف الشرعى دون الحقيقة اللغوية .

وإذا تقرر هـذا فالمتبادر إلى الفهم من قولهم أن الله معك أى بالحفظ والرعاية ومن ذلك قوله تعـالى : « لا تحزن إن الله معنا » ولو أراد أنه بذاته مع كل أحد لم يكن لهم بذلك اختصاص لوجوده فى حق غيرهم كوجوده فيهم ; فعلم أن ظاهر هـذه الألفاظ هو ما حملت عليه فلم يكن تأويلا .

ثم لو كان تأويلا فما نحن الذين تأولناه ، وإنما السلف رحمة الله عليهم هم الذين ثبت التأويل عنهم وقد ثبت صوابهم ووجب اتباعهم أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده . سيما وقد احتفت بالآية قرائن جعلتها تدل على هذا المعنى بوضوح .

ثم ختم الله الآية بقوله والله أى الجامع لصفات الألوهية من القدرة والبطش بالظالمين والعلم والحكمة التامة بصير بما تعملون فيجازيكم على مايصدر منكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر فالحكمة فى هذا التذييل أنه بمثابة وعد ووعيد وبشارة وإنذار . وقدم المتعلق فى قوله بما تعملون على المسند للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، وبعض العلماء يجعل السر هو رعاية الفاصله وهى أواخر الآيات ، ولكنى أرى أن لا يلجأ إلى هذا إلا عند العجز عن تلمس السر البلاغى . وبصير صيغة مبالغة محولة من مبصر كما حولوا لفظ سميع من مسمع وفى قوله : « وهو معكم » استعارة تمثيلية : شبه هيئة العباد مع الله سبحانه وإحاطة الله بهم بمن يلازم غيره ويراقبه ويطلع عليه بجامع الكشف وإظهار الخفى فى كل واستعير لفظ المعية الحقيقية للمعية العلمية على سبيل الاستعارة التصريحية وقيل المعية مجاز مرسل عن العلم بعلاقة السببية .

خلاصة المعنى

لما وصف الله نفسه بالقدرة فى قوله : « وهو على كل شىء قدير » ووصف نفسه بالعلم فى قوله : « وهو بكل شىء عليم » بين مظاهر قدرته بقوله : « هو الذى خلق السموات والأرض » وبين أن هذا الخلق مصحوب بالعظمة التامة والتدبير المحكم فقال ثم استوى على العرش ثم بين مظاهر علمه بقوله : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » ثم شفع ذلك بالوعد والوعيد ليحمل الطائعين على الازدياد من الخير وحسن المراقبة فقال : « وهو معكم أينما كنتم » وذلك أيضاً يحمل الكافرين والعاصين على التوبة والارعواء عن الخطيئة وختم الآية بقوله : « والله بما تعملون بصير » لتكمل الموعظة وتتخلل القلوب .

قال الله تعالى :

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

لا تظن أن هذا تكرار لغير فائدة بل هو تطبيق لمنهج البحث العلمى الذى وصل إليه الباحثون فى أعظم عصورهم . فالمناطقة الذين وضعوا مراتب الفكر وحددوها بقواعد لم يصلوا إلى أكثر من هذا الترتيب . فنظام الباحثين يقضى بفرض الدعوى ووضعها تحت البحث ثم الاستدلال عليها بأنواع المشاهدات والتجارب والقوانين البديهية فإذا ثبتت بالدليل أعادوا ذكر الدعوى على أنها نتيجة منطقية جاءت مرتبة عن البحث العلمى والبرهان اليقينى وهكذا سلكت الآيات الكريمة من أول السورة فالدعوى هى أن الله قد استحق التنزيه الكامل والكمال المطلق وعبر عن هذه الدعوى بقوله تعالى : « سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » . ثم جاءت الآيات بعدها أدلة تعتمد على المشاهدة تارة وعلى العقل تارة أخرى . فلما ظهر الحق وتبين صدق الدعوى بالأدلة اليقينية جاءت الدعوى مرة أخرى على شكل نتيجة يؤمن بها الخصم ويذعن

لها العدو وذلك كما إذا ادعى إنسان أن الذهب معدن ثم لما ذكر هذه الدعوى طولب بالبرهان فقال الذهب يتمدد بالحرارة . وكل ما يتمدد بالحرارة معدن ثم لما ذكر الدليل ساق النتيجة فقال إذا الذهب معدن . وقد غفل كثير من الباحثين فى كتاب الله عن هذا السلوك المنطقى فقالوا إنه تكرار للتأكيد والحقيقة أنه ليس تكراراً أصلا لأن القضية الأولى ذكرت بوصف الدعوى التى تساعد للاستدلال عليها والقضية ذكرت مرة أخرى بوصف كونها نتيجة ثبتت بالبرهان وشتان بين الوصفين والعنوانين . والله أعلم بأسرار كتابه أو يقال إن الأول لأمور الدنيا من الأحياء وغيره والثانية للمعاد وبعث الناس من قبورهم .

ومعنى وإلى الله ترجع الأمور أى إليه المرجع يوم القيامة فيحكم فى خلقه بما يشاء وهو العدل الذى لا يجور والأولى أن يراد بالأمور ما يشمل أمور الدنيا وأمور الآخرة . فإرادة الخلق خاضعة لإرادته ولا معقب لحكمه فكل أمر من أمور الخلق مردها فى وجودها وعدمها إلى الله تعالى . وقدم الجار والمجرور فى قوله: « وإلى الله » على الفعل لإفادة القصر أى إليه وحده لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكا ترجع جميع الأمور .

والأمور جمع الأمر وهو بمعنى الشأن أى أن جميع الشئون الدنيوية والأخروية مردها إلى إرادة الله ومشيئته .

قال الله تعالى :

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

الاعراب والمفردات اللغوية
والأسرار البلاغية

يولج فعل مضارع رباعى من أولج والفاعل ضمير يعود على الله والليل مفعول به وجملة وهو عليم بذات الصدور جملة حالية من فاعل يولج . والماضى منها أولج والمصدر الإيلاج والوليجة البطانة وهى خاصة الرجل من الرجال ومعنى يولج الليل فى النهار يدخل ما نقص من الليل ويزيد به النهار ومعنى يولج النهار فى الليل يدخل ما نقص من النهار فيزيد به الليل حتى يصير النهار فى الصيف خمس عشرة ساعة وهو أطول ما يكون ويصير الليل تسع ساعات وهو أقصر ما يكون وبالعكس فى الشتاء .

قال القرطبى : وتحتمل ألفاظ الآية معنى التعاقب كأن زوال أحدهما ولوج فى الآخر ، وأنا أستبعد ذلك لغرابته فى اللغة .

وفى التعبير استعارة : شبه زيادة زمان النهار فى الليل وعكسه بحسب المطالع والمقارب بإيلاج شىء وإدخاله فى شىء آخر بجامع الاختلاط والخفاء فى كل ثم اشتق من الإيلاج يولج بمعنى يزيد من أحدهما فى الآخر على سبيل الاستعارة التبعية لأنها جرت فى الفعل ، ويصح أن تجعلها استعارة بالكناية ويولج لازم الاستعارة وإجراؤها هكذا شبه الليل والنهار بوعاءين يمكن إدخال كل منهما فى الآخر بجامع الملابسة والاتصال فى كل وحذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو الإيلاج على سبيل الاستعارة المكنية وكما تعلمون من قواعد البلاغة أن لازم الاستعارة المكنيه يمكن أن يكون فيه استعارة تبعية .

وفصل جملة يولج عما قبلها لأنها كدليل على ما قبلها فلما قال الله له ملك السموات والأرض كأن سائلا سأل ما دليل هذا الملك وما علامته فقال يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل .

والسر فى تقديم حكم الليل على النهار أن الليل ظلمة وهى سابقة على النور لما رواه الإمام أحمد والبيهق والترمذى وحسنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله عز

وجل خلق خلقه فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عز وجل .

ويرى بعض العلماء أن النور والظلمة فى هذا الحديث لا يراد بهما حقيقتهما ، وإنما النور كناية عن خلقهم مستعدين بفطرتهم للنظر فى آيات الله والتوصل منها إلى خالقها ، والمراد بالظلمة ما جبلوا عليه من الأهواء المضلة ؛ فمن تأمل فى الكون شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ومن لم يفعل ذلك فهو المخطىء لذلك النور . قال ذلك فى الفتح الربانى ترتيب مسند أحمد جـ ١ .

وأنا أرى أن السر فى تقديم حكم الليل على حكم النهار أن الليل ظلمة والظلمة من قبيل العدم والنور من قبيل الوجود والعدم مقدم على الوجود فى كل حادث .

فإن قيل إن الآية تقول : « ولا الليل سابق النهار » قلت إن معنى الجملة أن الليل لا يغلب النهار ولا يتعدى حدوده ، ولم تتعرض الآية للسابق منهما وجوداً .

وقد اعترض أحد علماء الجغرافيا على الآية فقال : إنها لا تشمل

البلاد الواقعة على خط الاستواء ففيها يتساوى الليل والنهار . ولكن هذا الاعتراض مردود على صاحبه لأن الآية مظهر من مظاهر القدرة ويكفى فى إثبات القدرة وقوع الولوج بين الليل والنهار فى سائر أنحاء الكرة الأرضية ما عدا بعض المناطق الواقعة على خط الاستواء ، والآية لم تتعرض لشمول هذه الظاهرة للكره الأرضية كلها حتى يعترض بنقص هذا الشمول .

على أننى سألت كثيراً من الطلاب النازحين من تلك المناطق عن هذه الظاهرة فقالوا إنها موجودة أيضاً حتى فى خط الاستواء ترى الليل يزيد تارة وترى النهار يزيد تارة أخرى وإن كانت زيادات طفيفة . فإن صح هذا فقد رد المعترض كيده إلى نحره .

وأما على تفسير الجبائى من المعتزلة من أن المراد بالإيلاج التعاقب أى إيجاد كل منهما عقيب الآخر فلا يرو وهذا الاعتراض أصلا إلا إنك عرفت أن هذا لا تساعده اللغة .

وأما سر الوصل بين يولج الثانية ويولج الأولى حيث عطفت عليها بالواو فظاهر لأنهما متفقتان فى أن كلا منهما جملة خبرية وهذا ما يعبر عنه البلاغيون بأنه التوسط بين الكمالين مع عدم المانع . والجامع بينهما موجود ؛ فالمسند والمسند إليه فى كل منهما متحدان

قال تعالى فى ختام الآية : « وهو عليم بذات الصدور » إشارة إلى كمال علمه بالأشياء ظاهرها وخفيها حتى ما تخفيه الصدور من النيات والأحقاد والظن وما إلى ذلك وذات الشىء حقيقته وذلك إشارة إلى إحاطة علمه بما يضمرونه فى أنفسهم بعد بيان إحاطة علمه بأعمالهم التى يظهرونها فى قوله : « والله بما تعملون بصير » ليشمل علمه ما ظهر من الأعمال وما بطن من النيات والضمائر .

ويجوز أن يراد وهو عليم بنفس الصدور ومن يعلم حقيقة الشىء وذاته يعلم ما فيه من باب أولى والصدور يكنى بها عن القلوب لأن القلوب هى موضع النيات والعزائم كما أنها موضع الظن والأحقاد ولأن صلاح الجوارح بصلاح القلوب وفسادها بفسادها أما الصدر الحقيقى الجسمى فهو وعاء فقط ولا تعلق له بشىء من الأمور المعنوية التى هى مناط الجزاء .

قال الله تعالى :

ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ .

فى الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب تنشيطاً للسامع ولبيان أن من هذه صفاته يجب الإيمان به والإيمان : قال أهل اللغة آمن به إيماناً صدقه والإيمان الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة والأمين القوى . والأمن ضد الخوف ورجل أمنه كهمزة بضم الهاء يأمنه كل أحد فى كل شيء . والمؤمن من صفات الله تعالى ومعناه أنه تعالى آمن الخالق من ظلمه لأنه حرم الظلم على نفسه وآمن أولياءه عذابه .

وروى المنذرى عن ابن عباس أن معناه المصدق عباده المسلمين يوم القيامة إذا سئل الأمم عن تبليغ رسلهم . والإنفاق . التصدق والإعطاء ومنـــه نفقت الدراهم نفقاً من باب تعب أى نفذت ويتعدى بالهمزة فيقال أنفقت الدراهم ، ونفقت الدابة نفوقا من

باب قعد أى ماتت ونفقت السلعة كثر طلابها وراجت . والنفق سرب فى الأرض يكون له مخرج من موضع آخر . ومنه النفاق أى إظهار للكلام وإبطان الكفر .

والاستخلاف اتخاذ خليفة يقال استخلف فلانا جعله خليفته ، والخلف الولد الصالح فإذا كان فاسداً أسكنت اللام والخلف بكسر اللام المخاض وهى الحوامل من النوق الواحدة خلفة بكسر اللام أيضاً والخليفة السلطان الأعظم . وخلف فم الصائم خلوفا بضم الخاء أى تغيرت رائحته . ومناسبة الآية لما قبلها أنه لما بين الله آيات قدرته وعلمه أمرهم بالإيمان به وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم لأن إيمانهم عند ذلك يكون إيماناً عن يقين وبرهان ولا يكون إيمان التقليد كإيمان الجهال فإنه غير مقبول عند الله . وقد فصلت الجملة عما قبلها فى قوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله » لأنها إنشائية وما قبلها خبرية فالمقام إذا للفصل لاختلافهما خبراً وإنشاء وهو ما يسميه البلاغيون كمال الانقطاع بلا إيهام ، وعطف الرسول على لفظ الجلالة للاشعار بأنه لا يقبل الإيمان بدون الرسول فلا بد من الإيمان بهما معاً وعلى ذلك بنيت شهادة الإسلام على قول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . وجعلت أول ركن من أركان هذا الدين . ويصح أن يقال أنه خص الإيمان بمحمد

ولم يذكر سائر الأنبياء مع أن الإيمان بجميعهم واجب إذ لا نفرق بين أحد من رسله لأن الإيمان بمحمد يستلزم الإيمان بجميع الرسل لأن الكتاب الذى نزل عليه يتضمن ذلك. أو نقول إن لفظ رسول مفرد مضاف فيعم كأنه قال آمنوا بالله ورسله. وأنت تعلم ما قلناه فى التعبير بلفظ الجلالة من أنه يفيد المهابة ويحمل على الامتثال ، كذلك اختيار وصف الرسالة دون محمد ليحمل على الإيمان لأنه متى ثبت وصفه بكونه رسولا حمل السامع على الإيمان به ، والتصديق بنبوته. ووصـــل بين جملتى وأنفقوا وآمنوا لاتفاقهما فى الإنشائية فبينهما التوسط بين الكمالين مع عدم المانع. وما اسم موصول بمعنى الذى وصلته جملة جعل لا محل لها من الإعراب ومستخلفين مفعول ثان لجعل. والتعبير بالاستخلاف إشارة إلى أن المال فى الحقيقة مال الله ونحن خلفاء عنه ، ولذلك يحرم علينا تبذير المال والإسراف فيه حتى ولو كنا مالكين له من وجوه مشروعة فالله يقول « ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً » والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ومنعاً وهات ووأد البنات ، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال) رواه البخارى ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه.

وإن أردت توسعاً فى هذا البحث فانظر شرح هـذا الحديث فى كتابنا (من هدى النبوة) .

فالواجب أن ينظر الناس إلى أموالهم الخاصة نظرتهم إلى أنها أموال الدولة ، فالادخار منها والاقتصاد فيها ووضعها فى مواضعها الشرعية تقوية للأمة وزيادة فى ثروتها ومساعدة لها فى نيل عزتها وحفظها من الاستعمار وذل الإفلاس . كذلك وضع الأموال الخاصة فى مواضعها وعدم التبذير فيما لا ينفع ، والاستفادة منها فى وجوه النفقة الشرعية من قضاء المصالح ومساعدة الفقراء وأداء فريضـة الزكاة ، والمساهمة فى المشروعات الهامة كل ذلك نأخذه من تعبير الله الكريم « أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » فإن شأن الخليفة أن يكون مسئولا أمام من استخلفه فلو وضع كل واحد أمام عينه هذا الأساس لاستقام أمره وحافظ على ثروته وبالتالى على ثروة أمته . قال الشهاب : الخلافة إما عن المتصرف الحقيقى وهو الله تعالى وهو المناسب لقوله تعالى : « له ملك السموات والأرض » أو عن أناس تصرفوا فـيما قبلهم ثم انتقلت إليهم وعلى كل ففيـه حث على الإنفاق وتهوين له ؛ أما على الأول فظاهر لأنه إذن وأمر بالإنفاق من ملك غيره ومثل ذلك يخرج سهلا على النفس مهما كثر وعلى الثانى أيضاً لأن من علم أن المـال لم يدم لمن قبله علم أنه

لايدوم له أيضاً فيسهل عليه الإنفاق . قال الشاعر لبيد من قصيدته التى مطلعها :

بلينـا وما تبلى النجوم الطوالع
وتبق الجبـال بعدنا والمصـانع

قال: وماالمال والأهلون إلا ودائع
ولابد يـوماً أن ترد الودائع

والتعبير بمن فى قوله مما — وهى تفيد البعضية — يشعر بأن إنفاق المال كله أو أكثره حتى فى المصـــالح الخيرية العامة غير مرغوب فيه شرعاً ، وإنما الذى يطلبه الإسلام إنما هو جزء قليل من المـال حدده الرسول صلى الله عليه وسلم فى وقت السلم بالثلث فقـد روى البخارى أن سعد بن أبى وقاص قال : عادنى النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع من مرض أشفيت منه على الموت فقلت يا رسول الله بلغ بى من الوجع ماترى وأنا ذو مال ولايرثنى إلا ابنة لى واحدة أفأتصدق بثلثى مالى قال لا : قال أفأتصدق بشطره قال لا : قال الثلث والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ولست بنافق نفقة تبتغى بهـا وجه الله إلا آجـــرك الله بها حتى اللقمة تجعلها فى فم امرأتك . قلت يا رسول الله أخلف بعد أصحابى قال إنك لن تخلف فتعمل

عملا تبتغى به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة ، ولعلك تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضربك آخرون . اللهم امض لأصحابى هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم .

وكذلك قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض » يفيد البعضية كذلك والقرآن يدعو إلى التوسط فى الأمور فيقول : «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا » ويقول : «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . »

قوله تعالى : « فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . » التعبير بالموصول للاشارة إلى تفخيم شأن الصلة ومن بيانه والتعبير بمنكم يفيد أنه لا يستحق هذا الأجر إلا المؤمن الحقيقى أما المنافق فلاحظ له فى الثواب وإن آمن ظاهراً وصلى مع المسلمين وتصدق مع المتصدقين .

وتقديم المسند على المسند إليه فى قوله لهم أجر وكونه جملة إسمية يفيد التخصيص والدوام أى لهم لا لغيرهم أجر كبير دائم والتنكير فى أجر ووصفه بالكبر مما يدل على عظم ثواب الله للمؤمنين المتصدقين فإن ما استعظمه الله واستكبره لا يدرك أحد

مدى عظمته وكبره . وفى الآية تكرير الإسناد وفيه من المبالغة ما لا يخفى .

خلاصة المعنى

بعد أن ثبت لكم أن الله قادر له ملك السموات والأرض وثبت لكم علمه الشامل وأنه عليم بما فى نفوسكم يجب عليكم أن تحذروه وتؤمنوا به وتنفقوا من الأموال التى فى أيديكم لأنها فى الحقيقة أموال الله هو الذى خلقها وأنشأها وقد مولكم إياها وخولكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها فليست هى بأموالكم فى الحقيقة وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب؛ فأنفقوا منها فى حقوق الله وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه أو نقول : إن معنى جعلكم مستخلفين فيه أنه ورثكم من كان قبلكم فملكتم مكانهم وحللتم فى أموالهم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينقل منكم إلى من بعدكم فلا تبخلوا به وانفعوا أنفسكم بالإنفاق من هذه الأموال . وهذا أعظم واعظ لمن يعتبر بحقيقة الأمور وينظر إليها ببصيرة نافذة . ثم بشرهم بأن الله أعد للمنفقين ثواباً عظيما لا يقدر قدره ، ولا يعرف كنهه . وقيل الأعرابى لمن هذه الإبل فقال هى لله تعالى عندى . وقد نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك وقد كان المسلمون فى عسرة شديدة فحثهم الله على البذل والإنفاق .

الأبحاث العامة

العلماء مجمعون على أن العمل الصالح لا يستتبع الثواب الأخروى إلا إذا كان مستنداً إلى إيمان قلبى صادق أما المنافق فمهما عمل من الصالحات فليس له فى الآخرة ثواب لأن العمل فقد شرطه الأساسى وهو الإيمان والله يقول فى حق المرائين المنافقين: «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون». كذلك قال الله فى حق الكافرين: «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا» فإن قلت إن الله لا يظلم مثقال ذرة فكيف يضيع على المنافق والكافر أعمالهم الصالحة قلت لنا جوابان إما أن نقول: إن الله لا يسئل عما يفعل فمهما فعل بالعباد فليس لهم بظالم لأنهم ملكه وللمالك أن يتصرف فى ملكه كيف يشاء وقد عبر صاحب الجوهرة فى التوحيد عن ذلك بقوله:

فإن يثبنا فبمحض الفضل وإن يعذب فبمحض العدل

وإما أن نقول: إن الله لم يضيع على الكافرين والمنافقين جزاء عملهم وإنما أعطاهم جزاءهم فى الدنيا وافياً كاملا فى صحة أبدانهم وكثرة ملكهم وسلطانهم وصحة أولادهم وزخرف الحياة

التى يتمتعون بها وكثرة ما هم فيه من النعيم الدنيوى وقد أشارت الآية السابقة إلى ذلك فى قوله تعالى : « نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » . أضف إلى ذلك أن الله هو الذى أسبغ عليهم نعمه ظاهرة من السمع والبصر والعقل الذى استطاع أن يكشف سر الحياة ويسير سفن الفضاء ويستخدم الغواصات فى أعماق البحار وغير ذلك من سائر أنواع النعيم والترف والسلطان وهاك نصوصاً كثيرة فى فضل الصدقة والزكاة .

الآيات والأحاديث
التى وردت فى فضل النفقة

قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وقال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » . وقال تعالى : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » .

وقال صلى الله عليه وسلم : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى أيوب رضى الله عنه أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : (أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة قال : تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصل الرحم) رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها من نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار رواه مسلم) .

وعن ثوبان مولى رسول الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ودينار ينفقه على دابته فى سبيل الله ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله رواه مسلم) . وفى الحديث يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت .

قال الله تعالى :

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ •

دعا يدعوا يتعدى بنفسه وبإلى وباللام .

والميثاق والموثق بكسر الثاء كمجلس هو العهد وجمعه مواثيق يقال وثق به كورث ثقة وموثقاً إئتمنه والوثيق المحكم . والوثاق بفتح الثاء وكسر الواو وفتحها ما يشد به الأسير ونحوه . ووثقه توثيقاً أحكمه وأرض وثيقة كثيرة العشب فالمادة تدور على الإحكام والقوة ولما كان العهد يعطى قوة بين المتعاهدين سمى العهد ميثاقاً .

وإعراب الآية هكذا ما إسم استفهام مبتدأ ولكم جار ومجرور متعلق بفعل محذوف خبر المبتدأ أى أى شىء حصل لكم وجملة لا تؤمنون بالله حال من ضمير لكم والعامل ما فيه من معنى الاستقرار (والرسول يدعوكم) جملة من مبتدأ وخبر فى محل

نصب حال من ضمير لا تؤمنون ولام لتؤمنوا صلة يدعو وهو يتعدى بها فى كثير من الاستعمالات ويجوز أن تكون اللام تعليلية وجملة وقد أخذ ميثاقكم حال من فاعل يدعوكم أو من مفعوله واقترن بقد لأن الجملة الماضية إذا وقعت حالا اقترنت بها أو الجملة حال معطوفة على حال قبلها من ضمير تؤمنون وهذا ضعيف لاختلافهما بالإسمية والفعلية وقوله إن كنتم مؤمنين شرط جوابه محذوف دل عليه ماقبله أى إن كنتم مؤمنين فاثبتوا على الإيمان وتمسكوا بآدابه . والتعبير بالمضارع فى قوله : مالكم لا تؤمنون إشارة إلى أن التوبيخ منصب على ترك الإيمان فى المستقبل بعد بيان آيات القدرة .

والتعبير بلفظ الجلالة لتقوية المهابة والحمل على الإيمان به لأن من يستحضر صفات الألوهية من القدرة التامة والعظمة الكاملة والعلم الشامل بما يعمل العباد لا بد وأن يقبل على ربه ويؤمن به ويعترف له بالألوهية . ولذلك قدم الله فى سورة الفاتحة وصفه بالله الرحمن الرحيم وبأنه رب العالمين وبأنه مالك الجزاء فى يوم الدين وعندما يستحضر العبد هذه الصفات ينطلق لسانه بتخصيص الله بالعبادة والاستعانة به فيقول : إياك نعبد وإياك نستعين ، وذكر محمداً بوصف الرسالة فى قوله : والرسول يدعوكم ، ولم يذكره

بالعلم إشارة إلى أنهم لا عذر لهم حيث ظهرت آيات القدرة الكونية وبلغهم الرسول شرائع الله فذكره بوصف الرسالة ليبين أن الأدلة العقلية والأدلة النقلية على لسان الرسول قد علموها جميعها فلا عذر لهم ولو ذكره بعلمه الشخصى لما أفاد هذا المعنى والتعبير بالمضارع فى قوله : يدعوكم ، مع أن الدعوة قد مضت وتكررت للإشارة إلى أن الرسول مستمر فى تبليغ دعوته لا ينقطع عنها والمضارع هو الذى يفيد الاستمرار التجددى فى الحال والاستقبال والتعبير بلفظ الرب فى قوله: لتؤمنوا بربكم للحث على الامتثال بالترغيب بعد الحث عليه بالترهيب لأن من يعلم أن الله رباه وأنعم عليه بجميع النعم يحمله ذلك على شكر المنعم والإيمان به وقوله : « إن كنتم مؤمنين » إن كان خطاباً للمؤمنين بالفعل فهو تهييج وإغراء لهم على ثباتهم على الإيمان وسعيهم فى إكماله والعمل بمقتضاه سيما والتعبير بأن الشرطية يفيد عدم الجزم بوقوع الشرط .

خلاصة المعنى

أى عذر لكم فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج . وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم على الإيمان حيث ركب فيكم العقول ونصب

لكم الأدلة ومكنكم من النظر وأزاح عللكم فإذ لم تبق لكم علة بعد أدلة العقل وتنبيه الرسول فما لكم لا تؤمنون مع أن موجب الإسلام متحقق وهو دليل العقل ودليل السمع وليس هناك موجب للكفر بحال بل هناك موجب لعدمه وهو أخذ الميثاق ويمكن أن يراد بالميثاق ما أشارت إليه الآية الكريمة فى سورة الأعراف حيث يقول الله سبحانه : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين »

وهو الذى عليه المحدثون أن الله تعالى أخذ من العباد بأسرهم ميثاقاً بالقول قبل أن يظهروا بهذه البنية المخصوصة وأن الإخراج من الظهور كان قبل أيضاً فقد أخرج أحمد والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفه فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرها بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا بضم القاف أى مشافهة وعياناً ألست بربكم قالوا بلى شهدنا). وعلى هذا لا مجاز فى قوله : أخذ ميثاقكم ، أما إن أردنا بالميثاق ماركبه الله فى العقول من الاستعداد والإيمان كما يشعر به قوله صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه

أو ينصرانه أو يمجسانه فالكلام محمول إذن على التمثيل شبه هيئة الله مع عباده حيث خلقهم مستعدين للتوحيد ونصب لهم مع ذلك الأدلة الآفاقية والأنفسية ومكنهم من النظر والاستدلال بهيئة من أخذ عهداً ووضع يداً فى يد ووثق عهده على صاحبه بجامع العلم والقوة فى كل على سبيل الاستعارة التمثيلية . وقد أخذ بعض العلماء من الآية شرف الدليل السمعى على الدليـــل العقلى حيث أشار إلى الأول بقوله : والرسول يدعوكم وأشار إلى الثانى بقوله : وقد أخذ ميثاقكم ، وهو حسن إذا نظرنا إلى أن الآية موجهة إلى المؤمن فأكثر ما يحتـــاج بعد إيمانه إلى أدلة الإسلام السمعية وأما إذا نظرنا إلى أنها موجهة إلى عموم الخلق فالدليل العقلى أقوى .

كل هذه الآراء إن جعلنا فاعل أخذ هو الله وهو ظاهر ومقبول ولكن بعضهم رأى أن الفاعل فى أخذ هو الرسول صلى الله عليه وسلم وجعل الميثاق هو البيعة فيما روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى المنشط والمكره وعلى النفقة فى العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلى أن نقول فى الله تعالى ولا نخاف لومة لائم .

وإرجاع الضمير إلى الرسول ضعيف حيث يجعل للكافر مندوحة فى الخروج من التوبيخ واللوم على ترك الإيمان فيقول لم يأخذ الرسول منى ميثاقاً بعد فكيف يوجه إلىّ اللوم على مخالفة هذا الميثاق أما على الرأى الأول وهو الضمير فى أخذ لله فاللوم متوجه على الكافر سواء قلنا بأن الميثاق هو الاستعداد الفطرى لكل إنســـان والأدلة العقلية التى تدعو إلى التوحيد أو هو ما أخذه الله على بنى آدم حين استخرجهم كأمثال الذر . وقد رأى صاحب الكشف أن الخطاب فى قوله : «وما لكم لا تؤمنون» عام لكل من يتأتى منه الخطاب وهو يؤدى إلى توبيخ من لم يؤمن بترك الإيمان وتوبيخ من آمن بترك الإنفاق فى سبيل الله .

وأنا أرى أن الخطاب للمؤمنين خاصة وهو تهييج لهم على الثبات على الإيمان والدوام عليه كأنه يقول لهم كيف لا تثبتون على الإيمان وتداومون عليه ودواعى ذلك الإيمان موجود عقلا ونقلا ومشاهدة .

قال الله تعالى :

هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ

المفردات اللغوية

عبده . العبد ضد الحر وجمعه عبيد وعباد وأصل العبودية الخضوع والذل وطريق معبد أى ممهد والاستعباد اتخاذ الشخص عبداً . والعبادة الطاعة قال فى القاموس العبد الإنسان حراً كان أو رقيقاً . والآية العلامة ووزنها فعله بالتحريك أو فاعله جمعها آيات وآى . والآية من القرآن كلام متصل إلى انقطاعه وسميت بذلك لأنها علامة على انقطاع الكلام الذى بعدها والذى قبلها أو لأنها علامة على معناها وأحكامها أو لأنها دليـــل بإعجازها وعلامة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل سميت آية لأن الآية تطلق على الجماعة قال أبو عمرو من علماء اللغة يقال خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم وقيل سميت بذلك لأنها عجب فى إعجازها كما يقال فلان آية من الآيات وبينة واضحة من

قولهم بان إذا ظهر قال فى المصباح بان الأمر يبين فهو بين وأبان واستبان كلها بمعنى الوضوح والانكشاف يستعمل أبان لازماً ومتعدياً أما الثلاثى فهو لازم ويقال بأن الشيء إذا انفصل فهو بائن .

ورءوف صفة من صفات الله تعالى والرأفة أشد الرحمة وهو صيغة مبالغة وزنها فعول كما أن رحيما صيغة مبالغة وزنها فعيل أى واسع الرحمة .

الأسرار البلاغيه

فصل بين جملة هو الذى وما قبلها لأن بينهما كمال الانقطاع لأن الأولى إنشائية استفهامية فى قوله . « وما لكم لا تؤمنون » فقد سبق لك أن عرفت أن ما اسم استفهام والثانية خبرية فوجب الفصل لكمال الانقطاع لاختلافهما خبراً وإنشاء بلا إيهام . وتعريف الطرفين فى قوله هو الذى يفيد الحصر أى أنه لاغيره هو المختص بإنزال الآيات على محمد صلى الله عليه وسلم والتضعيف فى ينزل يفيد قوة الإنزال والتمكن منه كما يفيد التدريج فى الإنزال والقرآن قد نزل على النبى صلى الله عليه وسلم منجماً مفرقاً على حسب الحوادث والأحوال والتعبير بالموصول والصلة لتفخيم شأن الصلة والاهتمام بها وبما فى حيزها من المتعلقات . والتعبير بالمضارع فى ينزل للإشارة إلى الاستمرار التجددى أى أنه يتعهد

نبيه فى المستقبل فينزل على ما يمنح الناس الهدى والنور . وإضافة عبد إلى ضمير الجلالة للتشريف وللإشعار بأنه فى منزلة لايدانيها منزلة أخرى وجمع الآيات للإشارة إلى تعدد الأدلة وتنوعها وأخر لفظ المفعول عن المتعلق من الجار والمجرور للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ووصف الآيات بكونها بينات للكشف والإيضاح واللام فى ليخرجكم للتعليل والخطاب وإن كان فى الأصل العربى يخاطب به معين إلا أنه هنا لكل من يتأتى منه الخطاب كقوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم » لا يقصد به مخاطب معين سيما وأن رسالة محمد شاملة عامة

وجمع الظلمات لتعدد أسبابها فهناك ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة السحاب وظلمة البئر وظلمة المناجم وهكذا وقدم الظلمات على النور للإشارة إلى تقدمها فى الوجود كما سبقت الإشارة إليه أما النور فسببه واحد فى هذا الوجود وهو الشمس حتى أن علماء الطبيعة يردون الأنوار الكهربية وأضواء المصابيح الغازية إلى الشمس لما أنها هى التى تمد الكون بالقوة السالبة والقوة الموجبة وهى كذلك تمد الكون بما يحتاجه من الأكسجين الذى لولاه لما اشتعل موقد وهكذا يرجع أصل النور فى الكون إلى شىء واحد هو ما فى الشمس من قوى متعددة أودعها الله فيها .

وفى التعبير عن الضلال بالظلمات وعن الهدى بالنور استعارة تصريحيه حيث شبه الايمان بالنور بجامع الوصول إلى المقصود والاهتداء إلى الهدف فى كل على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية أما كونها تصريحية فلذكر المشبه به وهو النور الحسى وأما كونها أصلية فاجريانها فى المصادر. وشبه كذلك الضلال بالظلمات الحسية بجامع عدم الوصول إلى المقصود فى كل على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ويراد بمن الابتداء وإلى الانتهاء .

وفى قوله تعالى : « وإن الله بكم لرءوف رحيم » وصل بين الجمل لاتفاقهما فى الخبرية وهو التوسط بين الكمالين وأكد الجملة بأن واسمية الجملة ولام الابتداء الواقعة فى الخبر للاهتمام وللرد على الوساوس النفسية التى ترى التكاليف من قبيل التعذيب مع أنها فى الحقيقة من قبيل الرأفة والرحمة وتقديم الجار والمجرور على الخبر الذى هو المسند للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر كما مر بكم كثيراً .

الأبحاث العامة

التعبير بقوله : ينزل بالتشديد يفيد معنى التدرج فى الإنزال وقد اختص بهذا دون سائر الكتب السماوية السابقة حيث نزلت

التوراة فى ألواح مرة واحدة كما نزل الإنجيل دفعة واحدة كذلك أما القرآن فقد كان له تنزلان بل أكثر . نزوله من الملأ الأعلى إلى اللوح المحفوظ ونزوله من اللـــوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا ونزوله من بيت العزة على النبى محمد صلى الله عليه وسلم فإذا نظرنا إلى تنزله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا وجدناه جملة واحدة وإذا نظرنا إلى تنزله من سماء الدنيا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وجدناه مفرقاً على حسب الوقائع والحوادث فالتعبير بأنزل يفيد الإنزال دفعة واحدة وأما نزل بالتشديد فيفيد التدريج ولهذا قال الله تعالى فى أول سورة آل عمران : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزله الفرقان » فروعى فى التعبير الأول نزول القرآن مفرقاً على النبى صلى الله عليه وسلم وروعى فى التعبير الثانى نزول التوراة والإنجيل دفعة واحدة وروعى فى التعبير الثالث نزول القرآن أول الأمر دفعة واحدة إلى بيت العزة فى سماء الدنيا .

والسر فى اختيار وصف العبودية على وصف الرسالة لأنه هو الوصف الذى يتفاوت فيه النبيون والمرسلون وقد وصل فيه نبينا إلى الذروة وقد كان يصلى لله بالليل حتى ورمت قدماه وقد كان يخشى الله خشية حتى يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل . وقد

وصفه الله بالعبودية فى أعظم وقت وأظهره للتشريف والتكريم فقال : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا » .

الآيات إذا أطلقت فى القرآن تطلق على الآيات المتلوة كالقرآن الكريم وتطلق على الآيات الكونية كالآيات التى سخرها الله فى الكون من الشمس والقمر والنجوم ولكن إذا عبر بالإنزال أو التلاوة كانت الآيات القرآنية هى المتبادرة إلى المعنى كقوله تعالى : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله » .

ومثال الآية عند الإطلاق قوله تعالى : « وماكان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب » تحتمل المعجزة الكونية والآية المتلوة وهكذا يحتاج الأمر إلى فطنة وتدبر لكل موضع ذكرت فيه الآية : واعلم أن العلماء الذين بحثوا فى علم الكلام وهو علم التوحيد قالوا لا يصح شرعاً تعليل أفعال الله تعالى لأن العلة تستلزم المعلوم من غير اختيار ولأنها باعثة على العمل والله منزه عن الغرض والباعث ولذلك عدلوا عن اللام فى قوله : « ليخرجكم من الظلمات إلى النور » بلام الحكمة تفادياً من الوقوع فى مستلزمات التعليل . وهذا فى رأيى خلاف لا طائل تحته لأن أفعال الله لا تخلو عن حكمة والحكمة والغرض فى نهاية أمرهما متحدان .

خلاصة المعنى

الله سبحانه ضم إلى نعمه السابقة السابغة نعماً أخرى فأنزل القرآن آيات واضحات تدل دلالة بينة على وحدانية الله وقدرته وإرادته وعلمه وأرسل بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ليرشد الناس إلى الهدى ويخرجهم من الجهل والكفر إلى الإيمان والمعرفة لأن الله رحيم بالعباد رءوف بهم ومن رحمته أرسل رسله وأنزل كتبه فأنقذ المؤمنين به من النار وهداهم سواء السبيل وواجب المسلمين إزاء هذه النعم أن يقابلوها بالشكران لله ولرسوله الذى كان واسطة العقد ووسيلة الإنقاذ .

قال الله تعالى :

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ
مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً
مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ
اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

المفردات اللغوية

السبيل . الطريق وما وضح منه وسبيل الله الجهاد وكل ما أمر الله به من الخير واستعماله فى الجهاد وحـــده لأنه فرده الأكمل وجزؤه الأفضل من باب قصر العام على بعض أفراده المهمة وهذا أهم الإفراد وأشملها لاسيما وسبب النزول كان لذلك وما دام الله يرث كل شيء فى السموات والأرض ومنه المال فما أجدر الناس بالإنفاق فى الجهاد وغيره وابن السبيل ابن الطريق الذى قطع عليه الطريق والسابلة من الطرق المسلوكة ويقال أسبل الأزار أرخاه .

وميراث أصلها واوى أى موراث ولكن أبدلت الواو ياء لوقوعها إثر كسره . وورث يرث فهو مثال واوى والوارث الباقى بعد فناء خلقه وفى الدعاء اللهم أمتعنى بسمعى وبصرى واجعله الوارث منى أى أبقه معى حتى أموت وتوريث النار تحريكها لتشتعل . والفتح يقال فتح كمنع ضد أغلق والفتح الماء الجارى والفتح النصر والفتح الحكم بين خصمين والمراد به هنا فتح مكة وقد كان فى الثامنة من الهجرة . درجة يقال درج الطفل إذا مشى ودرج القوم انقرضوا . والدراج النمام ورجع أدراجه أى عاد فى الطريق الذى جاء منه والدرجات جمع درجة وهى الطبقة من المرتبة . والحسنى الجنة والحسن الجمال وحسن ككرم والحسنى ضد السو أى والعاقبة الحسنة . والنظر إلى الله عز وجل والظفر والشهادة ومنه قوله إلا إحدى الحسنيين .

الأسرار البلاغية

وصل جملة ومالكم أن لاتنفقوا لأنها توبيخ لمن ترك الإنفاق فعطفه على التوبيخ الأول على ترك الإيمـــان فى قوله ومالكم لا تؤمنون وهما متفقتان فى الإنشائية فبينهما التوسط بين الكمالين مع عدم المانع ووضع الاستفهام موضع الأمر وكان يكفى أن يقول أنفقوا للتوبيخ علي تأخرهم عن الإنفاق مع تقدم ما يوجبه

من أمر الله تعالى به فى قوله آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا أى كان ينبغى أن تمتثلوا وتؤمنوا وتنفقوا بمجرد صدور الأمر فما بالكم تأخرتم وبخلتم . وفى التعبير بقوله سبيل الله استعارة تصريحية شبه طريق الخير وأنواع البر بالطريق الحسى بجامع الوصول إلى الهدف فى كل وتناسى التشبيه وادعى أن المشبه أصبح فرد من أفراد المشبه به . واستعار منه لفظ سبيل من جزئى من جزئيات المشبه به إلى جزئى من جزئيات المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . والقرينة إضافة سبيل إلى لفظ الجلالة . وفى قوله : « ولله ميراث » كناية عن زوال المال عن صاحبه لأن الله إذا ورث السموات والأرض فقد ورث ما فيهما من المال والكنوز والمتاع والأنفس لأن أخذ الظرف يلزم منه أخذ المظروف الذى يحتويه . ويمكنك أن تجعلها من قبيل المجاز بالاستعارة فتقول شبه بقاء الأشياء بعد فناء الناس فى قبضة الله بالتركة التى يموت عنها صاحبها بجامع زوال الملك وانتقاله فى كل . وقد سبق لك السر فى جمع السموات وتقديمها على الأرض وإفرادها . وجملة ولله ميراث السموات والأرض جملة حالية من فاعل تنفقوا وفائدتها تأكيد التوبيخ فإن ترك الإنفاق بغير سبب قبيح منكر ومع تحقق ما يوجب الإنفاق من مآله إلى الزوال أشد فى القبح وأدخل فى الإنكار كأنه قيل أى عذر لكم فى ترك الإنفاق

فى سبيل الله والحال أن هذه الأموال لا يبقى لكم ولا لغيركم منها شىء بل تصير كلها لله عز وجل . وإظهار الإسم الجليل فى موقع الإضمار لزيادة التقرير وتربية المهابة . وإعراب جملة ما لكم تقدم ذكره وحاصله أن ما اسم استفهام مبتـــدأ ولكم جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر أى حدث لكم وأن مصدرية ولا نافية وأن وما دخلت عليه فى محل جر بحرف محذوف تقديره وما لكم فى أن لا تنفقوا .

وحذف مفعول الإنفاق لأن الله سبحانه بين مصارف الصدقات فى قوله : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » الآية من سورة التوبه وفى قوله تعالى : « يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » الآية من سورة البقرة .

والتعبير بيستوى المضارع للإشارة إلى أن هذا الحكم مستمر فى المستقبل لا ينسخه ناسخ والخطاب فى منكم للصحابة رضوان الله عليهم وتقديم الجار والمجرور للتنصيص على شمول الحكم لهم ومن اسم موصول عام وحذف مفعول أنفق لما تقدم أو لإجرائه مجرى اللازم .

والاستواء والتساوى لا يكون إلا بين أمرين ذكر أحدهما وحذف الآخر لظهوره ودلالة ما بعده عليه كأنه قيل لا يستوى من أنفق وقاتل ومن لم ينفق ولم يقاتل .

وأل فى الفتح للعهد والمراد به فتح مكة أو فتح الحديبية فإن الرسول صلى الله عليه وسلم سماه فتحاً أو للجنس ادعاء . وقد ورد ما يثبت أن المراد به صلح الحديبية فقد أخرج ابن جرير وأبو نعيم فى الدلائل عن أبى سعيد الخدرى قال : (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك أن يأتى قوم يحتقرون أعمالكم مع أعمالهم قلنا من هم يارسول الله أقريش قال لا ولكن هم أهل اليمن هم أرق أفئـــدة وألين قلوبنا فقلنا . أهم خير منا يارسول الله قال : لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه ألا إن هذا فصل ما بيننا وبين الناس لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح الآية . والتعبير باسم الإشارة لتميزهم فضل تميز واختار اسم الإشارة البعيد إشارة إلى بعد رتبتهم وعلو منزلتهم ولأن اسم الإشارة يحمل فى طيه جميع الأوصاف السابقة كأنه قال أولئك الموصوفون بهذه الأوصاف الكريمة السابقة كلها

هم أعظم درجـــة وأكثر ثواباً من غيرهم ، ولو عبر بالضمير لما أفاد ذلك وأعاد الموصول فى قوله : « من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » وكان يكفى أن يقول من غيرهم لتقرير ما فى حيز الصلة وللإشادة بذكر الإنفاق والجهاد مرة أخرى وكلا بالنصب مفعول وعد وقدمه للمسارعة إلى تبشير كل مؤمن بأنه فى أمن وجنه وأل فى الحسنى للعهد وهى الجنة أو للجنس وتشمل كل نعيم وقرىء كل بالرفع والعائد محذوف أى وعده الله الحسنى كما فى قول الشاعر :

وخالد يحمد ساداتنـا بالحق لا يحمد بالباطل

أى يحمده وساداتنا بالرفع فاعل يحمد . ولكن البصريين منعوا حذف العائد من الخبر وقد فسر بعضهم الحسنى بما يعم الدنيا والآخرة فأدخل تحتها النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة ورؤية وجه الله ورضوانه فى الآخرة .

وأظهر فى مقام الإضمار فى قوله : والله بما تعملون خبير لبيان أنه قادر على توصيل الثواب لهم لا معقب لحكمه ولاراد لفضله لأنه الإله المعبود بحق العليم بكل ما يصدر من خلقه ، وفى ذلك تربية للثقة فى نفوس المنفقين فلا يخافون من فقر أو ضياع ثواب .

وقدم الجار والمجرور فى قوله : « بما تعملون » على متعلقه وهو خبير لرعاية الفاصلة .

الأبحاث العامة

مناسبة الآية لما قبلها أن الله عز وجل لما وبخهم على الكفر وترك الإيمان فى قوله :« وما لكم لا تؤمنون بالله » وبخهم هنا أيضاً على ترك الإنفاق فى سبيل الله ، وبين لهم أن النفقة تتفاوت بحسب موقعها والدافع لها والحاجة إليها.

ولما كان الناس قبل الفتح أحوج إلى المال لفقرهم وكثرة حروبهم وقلة عدتهم كانت نفقة المنفقين إذ ذاك لها فضل عظيم عند الله ، وقد بين الله ذلك ليتحروا الأفضل ، وذكر القتال مع الإنفاق لبيان أهم وجوه الإنفاق .

وصريح الآية يفيد الحكم بتفاضل الصحابة ولا شك فى ذلك والحديث يؤيد ذلك حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق أبى بكر لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان الأمة لرجح إيمان أبى بكر . إلا أن بعض العلماء جعلهم طبقة واحدة كابن حبان فلم يراع هذا التفاوت بل نظر إلى اشتراكهم فى وصف الصحبة ورؤية النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أخذ ذلك من مسلك

أبي بكر في خلافته حيث كان يقسم العطاء بين الصحابة على سواء فقيل له أتسوى بين من سبق إلى الإسلام ومن أسلم تحت السيف فقال ذاك عطاء الدنيا والله هو الذي يفضل بعضهم على بعض في الآخرة .

ولكن عبد الله بن سعد صاحب الطبقات الكبرى يرى الآية توحي بوجوب تفضيل أهل العزم والهمة من السابقين الأولين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في وقت قل المسلمون فيه وكثر أعداؤهم ، ولم تكن هناك غنائم تدفعهم إلى الحروب وإنما الذي كان يبعثهم هو إعلاء كلمة الله وحده . لهذا قسمهم إلى طبقات كثيرة ولاحظ أهم النقط البارزة في تاريخ الدعوة الإسلامية كالهجرة الأولى إلى الحبشة وكالهجرة الثانية إلى المدينة وكغزوة بدر والخندق وبيعة الرضوان وفتح مكة وما بعد الفتح وغير ذلك .

وهاك نموذجاً لما صنعه ابن سعد في طبقاته .

الطبقة الأولى : هم السابقون الأولون من المهاجرين كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال بن رباح الحبشي وخديجة بنت خويلد تلحق بهذا القسم .

الطبقة الثانية : هم الذين هاجروا إلى الحبشة كحاطب بن عمرو وسهيل بن بيضاء وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة .

الطبقة الثالثة : السابقون الأولون من الأنصار وهم أصحاب بيعة العقبة الأولى كعبادة بن الصامت وأسعد بن زرارة ورافع ابن مالك .

الطبقة الرابعة : أصحاب العقبة الثانية مثل البراء بن معرور وجابر بن عبد الله وسعد بن خيثمة .

الطبقة الخامسة : المهاجرون الذين أدركوا الرسول صلى الله عليه وسلم قبل دخوله المدينة وهو نازل بقباء كأبي سلمة بن عبد الأسد وعامر بن ربيعة .

الطبقة السادسة : البدريون الذين حضروا غزوة بدر كحاطب ابن أبي بلتعة وسعد بن معاذ والمقداد بن الأسود وغيرهم .

الطبقة السابعة : من هاجر فيما بين بدر والحديبية كالمغيرة ابن شعبة .

الطبقة الثامنة : أهل بيعة الرضوان الذين حضروا صلح الحديبية وبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الموت مثل سلمة بن الأكوع وسنان بن سنان .

الطبقة التاسعة : من هاجر بعد الحديبية إلى فتح مكة مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبى هريرة .

الطبقة العاشرة : مسلمة الفتح كأبى سفيان بن حرب وحكيم ابن حزام .

ثم يأتى دور الصغار الذين شاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الفتح أو فى حجة الوداع كأبى الطفيل عامر بن واثلة والسائب بن يزيد .

وقد تتداخل هذه الطبقات فالخلفاء الراشدون مثلا من الطبقة الأولى وقد حضروا بدراً وكثيراً من المشاهد الأخرى .

وعلى كل حال فقد اتفق الجميع على أن أفضل الصحابة أبو بكر رضى الله عنه وقال العلماء أنه سبب نزول الآية التى نحن بصدد تفسيرها فقد روى الواحدى أنه قال : نزلت الآية فى أبى بكر رضى الله عنه ، وروى القرطبى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : أول من أظهر الإسلام بسيفه النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وهو أول من أنفق على نبى الله .

وعن ابن عمر قال : (كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر وليس عليه إلا عباءة قد خللها فى صدره بخلال

فنزل جبريل فقال : يا نبى الله مالى أرى أبا بكر هكذا فى ثوب واحد فقال : قد أنفق على النبى ماله قبل الفتح قال جبريل : فإن الله يقول لك اقرأ على أبى بكر السلام وقل له : أراض أنت فى فقرك هـــذا أم ساخط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول : أراض أنت فى فقرك هذا أم ساخط فقال أبو بكر : أأسخط على ربى إنى عن ربى لراض . إنى عن ربى لراض . إنى عن ربى لراض فقال : فإن الله يقول : قدر رضيت عنك كما أنت عنى راض) .

وذلك الفضل كله لأن أبا بكر أنفق ماله فى وقت شـــدة واحتياج من المسلمين وكثرة تربص من عدوهم والرسول صلى الله عليه وسلم يقول سبق درهم مائة ألف درهم أخرجه النســائى فى الزكاة .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : (سبق النبى صلى الله عليه وسلم وصلى أبو بكر وثلث عمر فلا أوتى برجل فضلنى على أبى بكر إلا جلدته حد المفترى ثمانين جلدة وطرحت شهادته) .

وقال آخرون : (إن سبب نزول الآية ما أخرجه أحمد عن أنس رضى الله عنه قال : كان بين خالد بن الوليد وبين

عبد الرحمن ابن عوف كلام فقال خالد لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال دعوا لى أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهباً ما بلغتم أعمالهم . وقال صلى الله عليه وسلم : لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) أخرجه مسلم .

خلاصة المعنى

يحث الله المسلمين على النفقة فى سبيل الله لأن المال مال الله وهو وارثه من بعدهم فلا معنى للبخل به ما دام منتقلا عنهم وأهم ما ينفق فيه هو الجهاد لشراء السلاح وتقوية الجيش وإعزاز الأمة ومن فعل ذلك فسينال المثوبة العظمى من الله وكلما كان الإنفاق فى وقت شدة وعسر واحتياج كان أكثر ثواباً وأعظم أجراً . والله لا يضيع مثقال ذرة فهو خبير بما يعملون .

ولذلك فضل من أنفق وجاهد قبل الفتح على من أنفق وجاهد بعد الفتح لشدة حاجة المسلمين إلى المال والسلاح لإعلاء كلمة الله وتثبيت دين الله الجديد فى هـــذه البيئة الملوءة بأتباع الهوى وعبادة الأصنام .

ولذلك أشاد الرسول بموقف أبى بكر رضى الله عنه حينما قدم ماله كله فى هـــذا الوقت العصيب فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم ماذا أبقيت لعيالك فقـال : أبقيت لهم الله ورسوله فقال صلى الله عليـــه وسلم إن أمن الناس على فى نفسه وماله أبو بكر لا تبق خوخة فى المسجد إلا سدت إلا خوخة أبى بكر .

ولو كنت متخذاً خليـلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا ولـكن أخوة الإسلام ومودته .

قال الله تعالى :

مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ .

المفردات اللغوية

قرضت الشيء قرضاً من باب ضرب قطعته بالمقراض وقرضت المكان عدلت عنه ومنه قوله تعالى : « وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال » وقرضت الشعر نظمته فهو قريض فعيل بمعنى مفعول . والقرض ما تعطيه غيرك من المال لتقضاه وأقرضته المال إقراضاً وتقارضاً الثناء أثنى كل واحد على صاحبه . قال فى القاموس القرض ما سلفت من إساءة أو إحسان والمقارضة المضاربة كأنه عقد على الضرب فى الأرض والسعى فيها وصورة المضاربة أو المقارضة أن يدفع إليه مالا ليتجر فيه والربح بينهما على ما يشترطان .

الأسرار البلاغية

الاستفهام فى قوله : « من ذا الذى » ليس على حقيقته بل المراد به الأمر أى اقرضوا فى سبيل الله وأنفقوا ووضع الاستفهام موضع الأمر فيه مجاز مرسل علاقته الإطلاق ثم التقييد لأن الأمر لمطلق الطلب ولكن الاستفهام لطلب الفهم . وذا إسم إشارة لا يشار بها إلى معين بل أصبحت لكل من يتأتى تميزه بالإشارة كالخطاب إذا لم يرد به مخاطب بعينه وإنما يراد خطاب كل من يتأتى منه الخطاب . واسم الموصول للتفخيم ورفع شأن المتصف بالصلة والتعبير بالمضارع فى قوله : يقرض للدلالة على استمرار الإنفاق وعدم انقطاعه وهذا شأن الكرماء وفيه تجوز حيث شبه إعطاء الصدقة التى لا يقصد من الفقير ردها بالقرض الذى يعطيه الإنسان لغيره ليرده إليه بجامع وصول الثواب فى كل ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه أصبح فرداً من أفراد المشبه به ثم اشتق من المشبه به يقرض بمعنى يتصدق على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، هذا إذا جعلنا التجوز فى الفعل يقرض أما إذا جعلنا التجوز فى الجملة جميعها فتكون استعارة تمثيلية وهو الأبلغ شبه هيئة من يعطى الفقير صدقة سراً بإخلاص قاصداً وجه الله تعالى وثوابه العظيم بهيئة من يقرض الله

بجامع رضا الله فى كل على سبيل الاستعارة التمثيلية والقرينة استحالة إقراض الله نفسه فهو الغنى ونحن الفقراء وهو القوى ونحن الضعفاء وهو القديم الذى ليس كمثله شىء ونحن الحوادث الذى تتصل بنا الأعراض وجىء بقوله قرضاً للتأكيد وللتمهيد لوصفه بالحسن والتنكير فيه للنوعية أى قرضاً من نوع خاص وهو الحلال الطيب المصاحب للإخلاص فى أفضل وجوه النفقة والتعبير بالفاء فى قوله فيضاعفه للإشارة الى ترتب المضاعفة عقب القرض مباشرة فهى فاء السببية التى تثبت أن القرض سبب للمضاعفة والتنوين فى قوله : وله أجر للتعظيم ووصفه بكريم يفيد أنه جمع بين العظم فى الكم والحسن فى الكيف وتقديم المسند على المسند إليه فى قوله : وله أجر للتخصيص. والجملة حالية وأما إعراب من ذا الذى فمن اسم استفهام مبتدأ وحدها أو من ذا كلها مبتدأ أو ذا إسم اشارة زائدة ملغاة على رأى من يجوز زيادة الأسماء والذى إسم موصول خبر المبتدأ فى محل رفع وجملة يقرض صلة الموصول لامحل لها من الاعراب ويضاعفه بالنصب لوقوع المضارع بعد فاء السببية وقد استوفى شرطه وهو أن يتقدم عليه طلب أمر نهى وهنا تقدم عليه الاستفهام وهو طلبى وأما من قرأه بالرفع فعلى تقدير فهو يضاعفه .

الأبحاث العامة

لا تكون الصدقة من قبيل القرض الحسن إلا إذا كانت مستوفية الشروط وهى أن يكون المال المتصدق به حلالا فقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم :(قال طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية) . وقال :(إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً) . والطيب الحلال . وأن يختار من أطيب ماله . فالله يقول : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » الآية من سورة البقرة .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأبى طلحة حينما تصدق ببستان كان أعظم ماله :(بخ بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح). وأن يكون التصدق والمرء صحيح شحيح يأمل العيش ويخشى الفقر فقد ثبت عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رجل يارسول الله أى الصدقة أفضل قال :(أن تصدق وأنت شحيح صحيح تأمل العيش وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا كانت بالحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا إلا وقد كان لفلان) . وأن يضع صدقته فى موضعها فلا يعطى أجنبياً وعنده قريب يحتاجها فقد روى عن

جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كان أحدكم فقيراً فليبدأ بنفسه وإن كان فضل فعلى عياله وإن كان فضل فعلى ذوى قرابته وإن كان فضل فهاهنا وههنا) رواه أبو داود والنسائى، وأن يتصدق فى السر فالله يقول «إن تبدوا الصدقات فنعمّا هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم» والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (صنائع المعروف تقى مصارع السوء وصدقة السر تطفىء غضب الرب) رواه الطبرانى بإسناد حسن. وأن يقصد بالصدقة وجه الله تعالى لأن الرياء فى الصدقة يحبط ثوابها كما أن المن والأذى بعدها يحبط ثوابها والله يقـــول: «يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس». والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر). ويقول أيضاً (من سمّع سمّع الله به ومن راءى راءى الله به) رواه مسلم.

زاد بعضهم شروطاً أخرى كأن يستحقر ما يعطى وإن كثر فإنما يعطى من فضل الله فى الحقيقة وإنمـــا هو وكيل عن الله وخليفته فى تصريف هذا المال لمستحقيه فإنه إذا استعظم العطية أعجب بهـا والعجب من المهلكات. والطاعة كلما استصغرت

عظمت عند الله عز وجل فقد ثبت أن الله يضاعف الصدقة الخالصة حتى تكون سبعمائة ضعف بل إلى أكثر من ذلك . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الله يربى لأحدكم صدقته كما يربى أحدكم فلوه أى مُهره) وكذلك المعصية إذا استصغرت عظمت وفى الحكمة لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور تصغيره وتعجيله وستره هذا ما يجعل القرض قرضاً حسناً له هذا الثواب المضاعف والأجر الكريم وفقنا الله وإياكم للإحسان فى أعمالنا حتى تستتبع ثواب الله .

خلاصة المعنى

يحثنا الله بكل أنواع الترغيب على الصدقة التى لا رياء فيها والتى استوفت شروط القبول ويبين لنا أن الصدقة وإن كانت للفقير ظاهراً فالله هو الذى يتقبلها كما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم . إن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد الفقير كما أن الله هو الذى يثيب عليها ويضاعفها أضعافاً كثيرة وفى هذا إغراء على البذل والإنفاق وإلا فمن ذا الذى يسمع الله يعرض على العباد مقارضته ومعاملته ثم يتأخر عن مد يده إليه مع أنه يعلم أن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما ،

قال الله تعالى :

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ •

المفردات اللغوية

سعى يسعى سعياً عدا فى مشيه وأسرع وسعى على عياله أى كسب لهم قوتهم وكل من ولى شيئاً فهو ساع عليهم وسعى به إلى الوالى سعاية وشى به على سبيل النميمة وبين ظرف متمكن والبين الفرقة والوصل ضدان والبين البعد . وجلس بين القوم أى وسطهم وهذا بين بين أى بين الجيد والردىء وبينا نحن كذا هى بين من غير ألف أشبعت فتحتها فحدثت الألف واليد الجارحة المعروفة وهى من أطراف الأصابع إلى الكتف أصلها يدى وجمعها أيد وبين يدى الساعة قدامها وبين أيديهم كناية عن الإمام

وسقط بضم السين فى يديه ندم والنسبة إليها يدى كعلى ويدوى وأيمانهم جمع يمين وهو ضد اليسار واليمين البركة وتيامن به ذهب به ذات اليمين ومعنى كنتم تأتوننا عن اليمين أى من قبل الشهوة لأن اليمين موضع الكبد والكبد مظنة الشهوة والإرادة واليمين القسم لأنهم كانوا يتمسحون بأيمانهم فيتحالفون وأيمن الله قسم . بشراكم . البشارة المطلقة لا تكون إلا بخير وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة كقوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » قال فى الفخر الرازى التبشير فى عرف اللغة مختص بالخبر الذى يفيد السرور إلا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذى يؤثر فى البشرة تغيراً وهذا يكون للحزن أيضاً فوجب أن يكون لفظ التبشير حقيقة فى القسمين .

وجنات جمع جنة وهى الحديقة ذات الشجرة والنخل يقال جنة الليل وجن عليه الليل ستره وسميت الجنة بذلك لكثرة أشجارها وعلو قصورها فهى ساترة لمعظم أجزائها والجنة بضم الجيم كل ما وقى والجنة بكسر الجيم طائفة من الجن وهكذا تدور المادة على الستر لأن الجن سموا بذلك لخفائهم وسمى ذهاب العقل جنوناً لأن داءه ستره . والأنهار جمع نهر وهو بسكون الهاء ويحرك مجرى الماء ويقال نهر النهر أجراه ونهر الرجل زجره

وأنهر الدم أساله . والنهار ما بين طلوع الشمس إلى غروبها (خالدين فيها) الخلود الدوام والإقامة قال فى المصباح خلد بالمكان خلوداً من باب قعد أقام وأخلد إلى كذا ركن والخلد بضم الخاء الجنة والخلد بتحريك الخاء واللام النفس . والفوز النجاة والظفر بالخير والمفازة المنجاة والمهلكة ضد والصحراء التى لا ماء فيها .

الأسرار البلاغية

إن أعربنا يوم ظرف زمان وجعلناه متعلقاً بخبر أجر المحذوف الذى تعلق به له لم تحتج الآية الى سر الفصل لأنها تصبح جزءاً من الجملة السابقة قيدا فيها إشارة إلى أن المتصدق إن لم يجد جزاءه فى الدنيا عاجلا فسيراه آجلا مدخراً له يبشر به حينما يراه أمامه نوراً يهديه طريق الجنة ونعيما ورضواناً من الله وفوزاً عظيما وخلوداً فى جنات النعيم فكأنه قال أجر كائن له يوم ترى المؤمنين الآية وكذلك إذا تعلق بقوله فيضاعف له وإن جعلناه منصوباً بإضمار فعل أى أذكر يوم كان سر الفصل شبه كمال الاتصال كأن سائلا سأل متى يحصل المتصدق على هذا الأجر الكريم؟ فقال أذكر هذا اليوم تعرف جواب سؤالك والخطاب فى ترى للنبى صلى الله عليه وسلم لأنه سيد المخاطبين أو الخطاب لمن يتأتى منه إعلاناً بأنه أمر ظاهر شائع ينبغى أن يوجه لكل مخاطب

كما فى قوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم » وعطف المؤمنات على المؤمنين للإشعار بأن الله يجازى كل إنسان بعمله سواء كان ذكراً أو أنثى وأل فى المؤمنين والمؤمنات للاستغراق فيشمل كل مؤمن ومؤمنة وقيل أل فيهما للعهد أى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة والتعبير بالمضارع للاستمرار وجملة يسعى نورهم فى محل نصب على الحال من مفعول ترى والحال وصف لصاحبها قيد فى عاملها والباء فى وبأيمانهم بمعنى عن أو بمعنى فى وحروف الجر ينوب بعضها عن بعض وقرأ بعضهم بكسر الهمزة أى بسبب إيمانهم وعدم إشراكهم والمعنى يسعى نورهم كائناً بين أيديهم وبسبب إيمانهم . وجملة بشرا كم الخ مقول لقول محذوف وقع حالا من المؤمنين والمؤمنات والقول من قبل الملائكة الذين عناهم الله بقوله : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » وهم الذين عناهم الله بقوله : « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون »

والمراد باليوم مطلق الوقت لأنه إذ ذاك ليس شمس ولا قمر

بل طويت السماء كطى السجل للكتب وكورت الشمس وجمع الشمس والقمر والتنوين فى جنات للتعظيم والتفخيم أى جنات لا يدرك عظمها إلا الله وفى إسناد تجرى إلى الأنهار مجاز عقلى لأن الجارى فى الحقيقة هو الماء فى الأنهار فأسند الفعل إلى مكان الماء وهو غير ما وضع له وإذا نظرت إلى الكلمة ولم تنظر إلى الإسناد كان فى الأنهار مجاز مرسل علاقته المكانية .

وفى قوله : من تحتها الأنهار مجاز بالحذف أى من تحت مساكنها أو من تحت أشجارها . خالدين فيها حال أى مقدرين الخلود فيها قال الألوسى وفيه التفات من الخطاب فى قوله بشراكم إلى الغيبة فى خالدين فيها لتنشيط السامع عند أبى حيان والإشارة فى ذلك إلى كل ما تقدم من النور الشامل والبشرى السارة بالجنات والخلود فيها وتعريف الطرفين ووجود ضمير الفصل واختيار المسند إليه من نوع إسم الإشارة كل ذلك للتمييز الأكمل حتى لا تبقى شائبة شك فى نجاتهم وفوزهم ناهيك بوصفه بالعظيم فذلك دليل على كمال النعمة وعظم الأجر . اللهم اجعلنا منهم ووفقنا للسير على هداهم .

هذا إذا حملنا الآية على حقيقتها وأنه نور حقيقى يضىء لهم

الطريق إلى الجنة أما إن أردنا بالنور الهدى الذى كانوا عليه فى الدنيا فهو استعارة تصريحية أصلية شبه الهدى بالنور بجامع النفع فى كل والوصول إلى الهدف وتنوسى التشبيه وادعى أن المشبه أصبح فرداً من أفراد المشبه به وسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات فاستعير لفظ النور للهدى على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

الأبحاث العامة

أشرنا فيما سبق إلى أن ذكر المؤمنات مع المؤمنين فيه إشعار بالتساوى فى الجزاء والحق يقال أن المرأة كالرجل فى وجوب التكاليف واستحقاق الجزاء فكل أمر موجه إلى الرجل فى القرآن والسنة هو فى الحقيقة موجه إلى النساء أيضاً وإنما خوطب الرجال فقط لأن الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . وكل نهى كذلك إلا ما خص الله به أحد الفريقين فإن هذا موضع استثناء من القاعدة العامة فمثلا أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة كما هو موجه إلى الرجال هو موجه إلى النساء ومثال ما اختص به الرجال قوله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم

بالمعروف » ومثال ما اختصت به المرأة « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » ولذلك روى الترمذى عن أم سلمة قالت يارسول الله: لا أسمع الله ذكر النساء بشىء فى الهجرة فأنزل الله : فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم » . الآية من سورة آل عمران . وأخرج الحاكم عنها قالت : قلت يا رسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزلت « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات » الآية من سورة الأحزاب .

وأخرج الحاكم أيضاً عنها أنها قالت : (تغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) . وهذه الخصوصيات قلة بالنسبة لمجموع التكاليف فلا فرق بين النساء والرجال فى معظمها كما لا فرق بينهما فى استحقاق الثواب قال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . وأنت تعلم أن من اسم شرط للعموم يشمل الرجال والنساء .

وإن أردت التوسع فيما يشترك فيه الرجال والنساء وما يختص

به كل منهما من واجبات وحقوق فعليك برسالتى : الإصلاح المنشود للأسرة فقد استوفت هذا البحث أيما استيفاء .

وقد اختلف العلماء فى هذا النور الذى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم هل هو حقيقة أم مجاز فرأى الجمهور بقاءه على حقيقته ما دام الأمر ممكناً وجاءت به الآثار الصادقة .

روى الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال (يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة ومنهم من نوره مثل الرجل القائم وأدناهم نوراً من نوره على إبهام قدمه يطفأ مرة ويوقد أخرى .

وقال آخرون : إنه مجاز عن الهدى الذى كانوا عليه فى الدنيا كما قال الله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » . الآية من سورة يونس .

وقد اختلفوا أيضاً فى الوقت والمكان اللذين يبدأ مصاحبة النور لهم فيهما فقال بعضهم : إن ذلك عند الصراط وقال آخرون يكون لهم عند خروجهم من قبورهم ويستمر معهم حتى يدخلوا الجنة ويعرفوا منازلهم بواسطة سعى النور بين أيديهم وإلى هذا

يشير قول الله تعالى : «ويدخلهم الجنة عرفها لهم ». ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن أحدكم لأعرف بمنزله فى الجنة من منزله فى الدنيا) .

وقد روى أبو ذر ما يشير إلى أن النور يصحبهم فى الموقف العام يوم القيامة فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا أول من يؤذن له فى السجود يوم القيامة وأول من يؤذن له فيرفع رأسه فأرفع رأسى فأنظر بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى فأعرف أمتى بين الأمم ، فقيل : يا رسول الله وكيف تعرفهم من بين الأمم قال : غر محجلون من آثار الوضوء ولا يكون لأحد غيرهم وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم من أثر السجود وأعرفهم بنورهم الذى يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم). فإن قلت لم خص جهتى الأمام واليمين بالذكر قلت هو فى الحقيقة نور من جميع الجهات إلا أنه اكتفى بهاتين الجهتين عن باقى الجهات كرمز فقط . أو نقول خص الأمام واليمين لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الأشقياء يؤتون صحائف أعمالهم من شمائلهم ووراء ظهورهم . وقال كثيرون إنه نور واحد فى الحقيقة عظيم الضياء يسعى عن أيمانهم ويبسط ضوءه فى كل جهة لأن الشعاع إذا كان أمام الرائى منعه من السير وحجبه عن اكتشاف ما أمامه

كما هو المعتاد لنا أما إن كان عن اليمين فقد أنار كل الجهات من غير مغالبة للنظر وفيه كشف أكثر للطريق .

وعلى كل فهو فضيلة لا ينالها إلا من أجهد نفسه فى الدنيا وتحمل ظلمات الحياة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بشروا المشائين فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة) رواه أبو داود والترمذى .

وأما قوله تعالى : خالدين فيها فالجمهور على أنه على حقيقته من إرادة الدوام والاستمرار وهو مذهب الأشاعرة وجمهور المسلمين على أن أهل الجنة وأهل النار من الكافرين مخلدون لا نهاية لخلودهم مستدلين على ذلك بنصوص من القرآن مثل قوله تعالى : « تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » . الآيتين من سورة النساء وقال تعالى فى حق أهل النار : « يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم » من سورة المائدة . وقال تعالى : « جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » آخر سورة البينة .

وقال تعالى : « إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا » الآية من سورة الجن . فالتعبير بالخلود والتأكيد بالأبدية مما لا يقبل التأويل ولا يحتمل غير الدوام الأبدى وكذلك نصوص السنة الصحيحة تجمع على ذلك فقد روى الإمام ابن كثير فى تفسيره آثاراً كثيرة منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : يقال (يأهل الجنة آن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا وآن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وآن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وآن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا) . وجاء فى الحديث الصحيح (يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يأهل الجنة خلود فلا موت ويأهل النار خلود فلا موت) .

حتى قال الألوسى فى تفسيره : إن خلود الكفار مما أجمع عليه المسلمون ولا عبرة بالمخالف يشير إلى فرقة ادعت أن معنى الخلود المكث الطويل فقط وتناست التقييد بالأبدية فى قوله : خالدين فيها أبدا واستدلت على رأيها الشاذ بآثار عن بعض الصحابة لم تصح عنهم منها أن عمر قال : لو لبث أهل النار فى النار كقدر رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه ومنها أن أبا هريرة قال : سيأتى على جهنم يوم لا يبقى فيه أحد ومنها أن ابن مسعود قال

ليأتين على جهنم زمان تصفق فيه أبوابها كناية عن عدم الداخلين أو الخارجين وإشارة إلى عدم وجود خازن للنار يمنع الخارجين منها كما هو شأن السجون فى ذلك الوقت ومنها أن الشعبى التابعى قال : جهنم أسرع الدارين عمرانا وأسرعهما خرابا إلى غير ذلك وقد نص المحدثون على ضعف هذه الآثار بل قال ابن الجوزى : إن عبد الله بن عمرو بن العاص روى عنه الرواة قوله يأتى على جهنم يوم ما فيها من ابن آدم أحد تصفق أبوابها كأنها أبواب الموحدين وهو موضوع مكذوب على الصحابى الجليل ولا يقول بهذا القول إلا من هو مغرم بالغرائب أو يريد أن يكون كما يقول المثل السائر (خالف تعرف) أما إن كان يريد الحق الواضح فهذا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع المحققين من الأمة وإعلان جمهورهم يصرحون بأن الجنة للمؤمنين خالدين فيها أبدا وأن النار للمشركين والكافرين خالدين فيها أبدا جعلنا الله من أهل الجنة وأعاذنا من النار .

خلاصة المعنى

يرغب الله فى الإيمان حيث ذكر ما يتمتع به المؤمنون والمؤمنات ويتميزون به عن سائر المخلوقات من أنهم يحاطون بالأنوار من

كل جهاتهم لكى يصلوا إلى مستقر الرحمة فى جنات الله ورضوانه وذلك مظهر عظيم من مظاهر التكريم وما يزالون فى هذه الحالة من النور يتقدمهم ويحيط بهم حتى يدخلوا الجنة .

وهناك محط رحالهم حيث تبشرهم الملائكة بالنعيم المقيم والخلود الدائم فى رضوان الله ورحمته وذلك هو الفوز كل الفوز والنجاة كل النجاة وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

قال الله تعالى :

يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ •

المفردات اللغوية

النفاق . إظهار الإسلام وإبطان الكفر . يقال : نفق البيع نفاقاً كسحاب أى راج ونفق الرجل والدابة نفوقا ماتا والنفق بفتحتين سرب فى الأرض له مخلص إلى مكان ، والنافقاء جحر اليربوع يكتمه ويظهر غيره ، فإذا أتى من قبل أخرى ضرب النافقاء برأسه وخرج منها ونافق فى الدين ستر كفره وأظهر إيمانه . قال فى المصباح : نفقت الدراهم من باب تعب أى نفدت ومحل النفاق القلب . (انظرونا) : انتظرونا أو انظروا إلينـــا

بأبصاركم وقرىء بقطع الهمزة وكسر الظاء أى أمهلونا أو أخرونا وكتب اللغة لا ترد هذه المعانى ، فالقاموس يقول النظر الانتظار ونظره وانتظره تأنى عليه والنظرة كفرحه بكسر الظاء التأخير فى الأمر . ومنه قوله تعالى : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » . ونظر بمعنى أبصر يتعدى بنفسه وبإلى . قال فى المصباح : نظرته أنظره نظراً بفتحتين ونظرت إليه أيضاً أبصرته ونظرت فى الأمر تدبرته ونظرت الشىء وانتظرته بمعنى ، وفى القرآن «ما ينظرون إلا صيحة واحدة » أى ما ينتظرون وناظره جادله .

(نقتبس) القبس بفتحتين شعلة من نار تؤخذ من معظمها وقبس منه ناراً من باب ضرب واقتبس العلم استفاده والقابوس الرجل الجميل الوجه الحسن اللون والقبس بكسر القاف الأصل . وراء : ظرف مكان وهو بمعنى خلف وقد يطلق ويراد منه قدام . ومنه قوله تعالى : « وكان وراءهم ملك » أى أمامهم ، وعليه جاء قول لبيد :

أليس ورائى ان تراخت منيتى   لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

ورأى الزمخشرى أن لها معنى واحداً يشمل الضدين معاً فقال : إنها إسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف أو قدام

وقال البيضاوى المفسر أنه فى الأصل مصدر ورا يرى مثل قضى يقضى فإذا أضيف إلى فاعله يراد به المفعول أعنى المستور وهو ما كان خلفاً ، وإذا أضيف إلى المفعول يراد به الفاعل أعنى الساتر وهو ما كان قداماً ورد عليه بقوله تعالى « ارجعوا وراءكم » فإن وراء أضيفت فيه إلى المفعول والمراد بها الخلف . وقال الفراء : لا يجوز أن يقال للرجل بين يديك هو وراءك وقال آخر : إنما تطلق وراء على الأمام والخلف إذا كانت فى أجرام لا وجه لها مثل حجرين متقابلين كل واحد منهما يصلح أن يكون أمام الآخر وخلفه فيقال لكل منهما وراء الثانى . والالتماس الطلب وتلمس تطلب مرة بعد أخرى الملامسة المجامعة ولمسه يلمسه بكسر الميم وضمها فى المضارع مسه بيده ويقال امرأة لا تمنع يد لامس كناية عن أنها تزنى وتفجر كثيراً . والسور حائط المدينة وجمعه أسوار وسورة الخمر بكسر الواو حدتها وسورة السلطان سطوته واعتداؤه والسورة بضم السين إحدى سور القرآن وهى الشرف أيضاً . (من قبله) بكسر القاف وفتح الباء أى من جهته ويقال ما يعرف قبيلا من دبير أى ما يعرف من يقبل عليه ممن يدبر عنه وقابله واجهه ورجل مقتبل الشباب بالفتح لم يظهر فيه أثر كبر بفتح الباء .

الاعراب

يوم يقول بدل من يوم ترى ويجوز أن يكون معمولا افعل تقديره اذكر وقال ابن عطية : يظهر لى أن العامل فيه ذلك الفوز العظيم ويكون معنى الفوز عليه أعظم كأنه قيل أن المؤمنون يفوزون يوم يعترى المنافقين كذا لأن ظهور المرء يوم خمول عدوه أبدع وأفخم . واعترض عليه بأن الفوز مصدر وهو لا يجوز لأنه مصدر قد وصف قبل أخذ متعلقاته فلا يجوز إعماله ولو قلنا أنه متعلق بالعظيم لجاز . وجملة انظرونا فى محل نصب مقول القول . والفعل نقتبس مجزوم فى جواب الأمر . والباء فى قوله بسور زائدة عند النحويين وجملة له باب صفة لسور وباطنه مبتدأ والرحمة مبتدأ ثان وفيه خبر الثانى وجملة الثانى وخبره خبر الأول . وكذلك إعراب ظاهره من قبله العذاب .

الاسرار البلاغية

تكرار الظرف فى يوم يقول بعد قوله يوم ترى إشارة إلى تكرار الحسرات على الكافرين فهم حينما يرون المؤمنين محاطين بهالة من النور يتحسرون ويوم يطلب المنافقون والمنافقات

شيئاً من نورهم يردون خائبين فتتوالى عليهم الحسرات وتحيط بهم النوائب ، وتتراكم عليهم الظلمات النفسية والظلمات الحسية والتعبير بالمضارع فى يقـــول للاستمرار كأنهم يلحون فى الطلب ويستـــمرون فى الإلحاح حتى يضرب عليهم بحاجز كثيف فييأسون عند ذلك من إجابة طلبهم . وأل فى المنافقين والمنافقات للاستغراق فيشمل كل فرد من أفرادهم والتعبير باسم الموصول فى قوله للذين آمنوا تفخيم لشأن الصلة وبيان لعظمة الإيمـان وأنه هو السبب فى هـذا النور العظيم المحيط بالمؤمنين من كل جهة . وفصلت جملة قيل عما قبلها لأنها جواب عن سؤال نشأ من الجملة السابقة كأنه قيل فماذا كان جواب المؤمنين بعـد طلب المنافقين فـكان الجواب قيل لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً وهذا ما يسميه البلاغيون شبه كمال الاتصال وبناء الفعل للمجهول إشعار بتعين الفـاعل وأنهم هم المؤمنون الذين سألوهم فأجابوهم أو أنه حذف لتفخيم الفـاعل لأن الشيء إذا لم يذكر ذهبت النفس فى كل مذهب فيقول قائل إنهم الملائـكة وقال آخرون إنهم المؤمنون وقال ثالث إنه من الله رأساً زجراً لهم كما قال اخسئوا فيها ولا تكلمون . والأمر فى قوله فالتمسوا نوراً للتهكم بهم وخديعتهم والاستهزاء بهم كما استهزأوا بالمؤمنين فى الدنيـا

حين قالوا آمنا وليسوا بمؤمنين وذلك فى قوله تعالى فى سورة البقرة الله يستهزىء بهم أى حين يقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً. قال أبو إمامة : يرجعون حين يقال لهم ذلك إلى المكان الذى قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور وهى خدعة الله تعالى التى خدع بها المنافقين. قال تعالى : « يخادعون الله وهو خادعهم » . وقيل المراد ارجعوا إلى الدنيا والتمسوا نوراً أى بتحصيل سببه وهو الإيمان أو تنحوا عنا والتمسوا نوراً غير هذا فلا سبيل لكم إلى الاقتباس منه والغرض التهكم والاستهزاء أيضاً . والأمر للتحسير والتنديم .

وبنى الفعل للمجهول فى قوله فضرب بينهم لعدم تعين الفاعل والباء فى قوله بسور للمصاحبة وتقوية الفعل كأن الضارب ملازم للسور لم يتركه بل لازمه حتى لا يقع خلل فيه كما فى قوله تعالى « ذهب الله بنورهم » فهو أبلغ من أذهب الله نورهم كذلك «فضرب بينهم بسور» أبلغ من فضرب بينهم سور وفائدة الوصف بقوله له باب هو الإشعار بأن المنافقين كلما رأوا هذا الباب تطلعت نفوسهم إلى فتحه واشرأبت أعناقهم للدخول منه ولكن هيهات هيهات سيبقى هذا التطلع عذاباً لنفوسهم ولو كان سوراً مصمتاً لا باب له ليئسوا واليأس راحة ولكن الله أراد أن يبقيهم

فى عذاب نفسى وجسمى معاً . وتكرار الإسناد فى قوله باطنه فيه الرحمة للتنويه وأل فى الرحمة للعهد الذهنى إذ هى معلومة بعنوان آخر فى قوله « بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار » . وكذلك تكرار الإسناد فى قوله ظاهره من قبله العذاب وأل فى العذاب للجنس .

الابحاث العامة

المنافق هو من أبطن الكفر وأظهر الإسلام ، ولم يعرف النفاق إلا بعد الهجرة من اليهود حينما رأوا سلطان الإسلام يظهر وليس لهم طاقة على محاربته وخافوا على أنفسهم القتل لو أظهروا الكفر . لذلك لجأوا إلى النفـــاق ليحفظوا دماءهم ويقتسموا المغانم مع المسلمين وفى الوقت نفسه كان لهم مؤامرات مع الأعداء وجولات أظهرت سرائرهم وفضحت أستارهم ونزلت فيهم آيات كثيرة فى أول سورة البقرة قال تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » . الآيات إلى قوله تعالى : « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير » ثلاث عشرة آية فى شأن المنافقين .

وكذلك فى سورة التوبة كثير من فضائحهم ولذلك سميت بالفاضحة والمخزية والمثيرة والحافرة والمبعثرة هذا جزاؤهم فى الدنيا أما فى الآخرة فقد قال الله تعالى فى شأنهم : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » . وكانوا حوالى ثلثمائة فى المدينة فى عصر النبوة وكان على رأسهم عبد الله بن أبى ابن سلول وكانوا أشد على المؤمنين من أعدائهم الظاهرين لأنهم يطلعون على أسرار المؤمنين ويداخلونهم فى كل شىء .

فإن قلت كيف يسوغ الكذب فى قوله ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً والقائل يعلم أنه لا نور وراءهم قلت إنه من باب السخرية جزاءاً وفاقاً لسخريتهم بالمؤمنين فى الدنيا فما هو إلا رد لقبحهم السابق الذى يشير إليه قول الله تعالى : « إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، فاتخذوهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون » . الآيات من سورة المؤمنون وكذلك قوله : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » الآيات من آخر سورة المطففين . وأيضاً هو أمر والأمر من قبيل الإنشاء والإنشاء لا يقال فيه كذب وصدق وإنما الذى يحتمل الصدق والكذب هو الأخبار . فإن قال قائل

إنه على كل حال من باب الخديعة وهى لا تجوز قلنا أحكام الآخرة غير أحكام الدنيا وقد ثبت أن الله يجازى صاحب الخديعة والحيلة بما يوافق حيلته وخديعته فى الدنيا ، فمثلا الرجل الذى يحتال على منع الزكاة مع وجود المال الكثير عنده يجعل الله منه صفائح وأعمدة على شكل تابوت واسطوانة مفرغة ثم يضع فيها المانع للزكاة ثم يوقد عليها ناراً فإذا صرخ واستغاث قيل له لا نريد إحراقك وإنما نريد التابوت فقط تهكما به .

خلاصة المعنى

إذا رأى المنافقون والمنافقات نوراً ساطعاً مع المؤمنين في جميع جهاتهم طلبوا منهم أن ينتظروهم حتى يسيروا فى نورهم أو على الأقل يلتفتون إليهم بوجوههم وينظرون إليهم فإن وجوههم ملازمة للنور أينما نظروا ولكن المؤمنين لا يستجيبون بل يخادعونهم فى الآخرة كما كانوا يخادعونهم فى الدنيا ويوهمونهم أن وراءهم نوراً فإذا رجعوا ليلتمسوه لم يجدوا إلا الظلمة الكثيفة فإذا عادوا إلى حيث كانوا وجدوا حاجزاً متيناً بين الفريقين فيستمرون فى العذاب والظلم ويصبح المؤمنون فى رحمة من الله ورضوان .

قال الله تعالى :

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ .

الاعراب والمفردات اللغوية

ألم . الهمزة للاستفهام الإنكارى وهو يتضمن معنى النفى فإذا دخل على أداة نفى كان إثباتاً كقول جرير يمدح عبد الملك ابن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

وهو حرف جزم ونكن مجزوم به ومعكم ظرف متعلق بمحذوف خبر نكن ولما كان الاستفهام تقريرياً كان جوابه بلى لتضمنه معنى النفى قال صاحب الإتقان بلى حرف والألف فيه أصلية وقيل الأصل بل والألف زائدة وقيل هى للتأنيث بدليل إمالتها ولا موضعان أحدهما أن تكون رد النفى يقع قبلها نحو

قول الله تعالى : « ما كنا نعمل من سوء » بلى أى عملتم السوء الثانى أن تقع جواباً لاستفهام دخل على نفى فتفيد إبطاله سواء كان الاستفهام حقيقياً أو توبيخياً أو تقريرياً كما فى الآية التى معنا وكما فى قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » وقوله تعالى : « ألست بربكم قالوا بلى » قال ابن عباس وغيره لو قالوا نعم لكفروا ولذلك لا تأتى بلى فى الإيجاب أصلا . لكن للاستدراك وإسمها الضمير المتصل بها وجملة فتنتم خبرها والأمانى جمع أمنية وهى فاعل غر وحتى حرف لانتهاء الغاية ويكون ما بعدها غاية لما قبلها نحو « سلام هى حتى مطلع الفجر » وهى تفيد إنتهاء الفعل قبلها شيئاً فشيئاً ، والغرور فاعل غر . فتن الذهب يفتنه بالكسر فتنة إذا أدخله النار لينظر ما جودته ويقال فتن الرجل على البناء للمجهول فهو مفتون إذا أصابته فتنة فذهب ماله أو عقله وكذا إذا اختبر قال الله تعالى : « وفتناك فتوناً » وفتنة المرأة دلهته والفاتن المضل عن الحق والفتان الشيطان والمحنة والابتلاء فتنة وجمعها فتن كعنب وفتن المال الناس من باب ضرب استمالهم والمصدر فتوناً والفتانان منكر ونكير والدرهم والدينار ومعنى فتنتم أنفسكم محنتموها بالنفاق وأهلكتموها بالمعاصى والشهوات واللذات ومعنى وتربصتم أى انتظرتم وترقبتم الموت للنبى صلى الله

عليه وسلم وتربصتم بالمؤمنين الدوائر أو سوفتم بالتوبة قال في القاموس ربص بفلان ربصاً بسكون الباء انتظر به خيراً أو شراً يحل به . كتربص . وارتبتم . الريب والارتياب الشك وريب المنون بسكون الياء حوادث الدهر . ومعنى وارتبتم أى شككتم في التوحيد والنبوة وغرتكم الأماني خدعتكم الأباطيل وطول الأمل وظننتم نزول الدوائر بالمؤمنين فتمنيتم زوال الإسلام وضعف المسلمين وكان بعض اليهود يقول سيغفر لنا وسندخل الجنة وهذه القولة من قبيل الأماني . يقال اغتر بالشيء خدع به . والغرور بالفتح الشيطان . وغيره يغره غروراً بالضم خدعه . والغرة بياض في جبهة الفرس إذا كانت بضم الغين فإن كسرتها فهى الغفلة وغرة كل شيء أوله والغرة العبد أو الأمة ورجل غر بكسر الغين غير مجرب . والأماني الأباطيل والأكاذيب ومنه قول عثمان رضى الله عنه (ما تمنيت منذ أسلمت). أى ما كذبت .

وقال بعض العرب لمحدثه أهذا شيء رويته أم شيء تمنيته أى افتعلته والأماني جمع أمنية وأصلها أمنوية على وزن أفعولة اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت ياء وأدغمت في الياء فصارت أمنية بالتشديد ولك في الجمع التخفيف والتشديد مثل أثافي وأغاني وهذا كما أجازوا في جمع مفتاح مفاتيح ومفاتح.

أمر الله . أى جاء الموت لهم أو ثبتت نصرة النبي صلى الله عليه وسلم أو ثبت إلقاؤهم فى النار . والأمر الشأن واحد الأمور أو هو واحد الأوامر .

الاسرار البلاغية

فعل جملة ينادونهم عما قبلها لأنها استئناف بيانى جاء جواباً لسؤال اقتضته للجملة السابقة كأنه قيل فماذا يفعلون بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب فقيل ينادونهم مستعطفية ألم نكن معكم فى الدنيا نصلى معكم ونجاهد معكم ونتصدق كما تتصدقون . قالوا بلى كنتم معنـــا بحسب الظاهر . ووضع الاستفهام للانـكار إخراج للـكلام عن حقيقته لأن حقيقة الإستفهـام طلب الفهم فإذا أريد منـه الانـكار تضمن النـفى من باب المجـاز المرسل علاقته التضاد لأن النفى من قبل الأخبار والاستفهام من قبيل الإنشاء . وإيثـار الخطاب لزيادة الاستعطاف والاستدراك لدفع التوهم الحـاصل من الظرف فى قولهم معـكم لأن المعية تقتضى الموافقة فى كل حالة فاستدرك لينفى موافقتهم لهم فى الإيمان القلبى واختيار الماضى فى الأفعال فتنتم وتربصتم وارتبتم وغرتـكم ليفيد وقوع هـذه الأشياء على سبيل الجزم . وإيثـار لفظ الجـلالة فى قوله أمر الله لتربيته المهابة وإدخال الروعة في قلوب المخاطبين

والتلذذ والتبرك فى نفوس المتكلمين المؤمنين وتقديم الجار والمجرور على الفاعل فى قوله : وغركم بالله الغرور للاهتمام والتشويق إلى المؤخر .

الأبحاث العامة

قولهم ألم نكن معكم يدل على أنهم يعطون حق المدافعة عن أنفسهم مع أن الآية تقول « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » . والجواب أن فى يوم القيامة مواقف عديدة فكل آية تتحدث عن موقف خلاف الآية الأخرى كما قال الله تعالى : « فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » . وقوله : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » . فاحرص على هذا الجواب فإنه ينفعك فى مواطن كثيرة .

إسناد الفعل إلى تاء المخاطبين فى قوله : فتنتم وما بعده يدل على أن الإنسان مسئول عن عمله القلبى كما هو مسئول عن أعماله بجوارحه لأن الفتنة للنفس والتربص والارتياب والاغترار كلها من أعمال القلوب . بل ربما كانت معاصى القلوب أشد من معاصى الجوارح كالكفر والحسد والكبر طهر الله قلوبنا وختم لنا بالإيمان وأتم علينا نورنا آمين .

خلاصة المعنى

حينما يرى المنـافقون والمنافقات بقـاءهم فى الظلمة والعذاب وتمتـع المؤمنين والمؤمنات بالنور والرحمة ويرون السـور الذى فصل بينهم وبين المؤمنين يتضرعون إليهم ويعتذرون لهم وينادونهم ألم نـكن معـكم فى الدنيا نعمل بالطاعات مثـل ما تعملون فيرد عليهم المؤمنون بأنـكم كنتم معنا فى الظاهر فقط أما قلوبـكم فقد انغمست فى الفتنة وتقلبت فى الشهوة وتعلقت بالأمانى الفـــارغة والآمال المزيفة وقد بين النبى صلى الله عليه وسـلم أن الأمل الطويل هو سبب الغرور دائماً . فقـال بعد أن خط خطوطاً فى ناحية وخط خطاً آخر فى ناحية فقال : (أتدرون ما هذا ؟ هذا ابن آدم وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت) .

قال الله تعالى :

فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

الاعراب والمفردات اللغوية

الفاء تفريعية واليوم ظرف زمان منصوب بالفعل المنفى بلا وفدية نائب فاعل يؤخذ وإنما ذكر مع كون نائب الفاعل مؤنثاً لوجود الفاصل وهو الجار والمجرور ولأن التأنيث غير حقيقى ولا الثانية تكرار للأولى وجملة كفروا صلة الذى لا محل لها من الإعراب ومأواكم خبر مقدم والنار مبتدأ مؤخر ويجوز العكس وبئس فعل ذم والمصير فاعل محلى بأل كما هو شرط الفاعل فى باب نعم وبئس والمخصوص بالذم محذوف أى النار . والفدية الفداء وهو ما يبذل لحفظ النفس عن النائبة والمأوى اسم مكان يؤدى إليه ويقال أويت إلى منزلى أوياً بالضم نزلته وسكنته وتأوت الطير وتآوت تجمعت والنار دار العذاب فى الآخرة ولها دركات

وطبقات وأبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وقوله : هى مولاكم أى ناصركم وقيل معناه أولى بكم كما فى قول لبيد يصف بقرة وحشية نفرت من صوت الصائد :

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه

مولى المخافة خلفهـــا وأمامها

أى فغدت كلا جانبيها الخلف والأمام تحسب أنه أولى بأن يكون فيه الخوف . وحقيقة مولاكم هى على هـذا محراكم أى المكان الذى يقال فيه هو أولى بكم كما قيل هو مئنة للكرم أى مكان لقول القائل إنه لكريم فمولى نوع من اسم المكان لوحظ فيه معنى أولى . وقيل من الولى وهو القرب ومعنى مولى على هذا أى موضعكم الذى تقربون منه وتصلون إليه وقيل معنى مولاكم المتصرفة فيكم كتصرفكم فيما أوجبها واقتضاها فى الدنيا من المعاصى والتصرف .

الأسرار البلاغية

مبنى يؤخذ للمجهول لتعين الفاعل وهو الله سبحانه والتنكير فى فدية للتعظيم يعنى ولا فداء لكم مهمـــا قدمتم . وقد روى الألوسى فى تفسيره : (قال فى الحديث إن الله تعالى يقول للكافر

أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنت تفتدى بجميع ذلك من عذاب النار فيقول نعم يارب فيقول الله تبارك وتعالى : قد سألتك ما هو أيسر من ذلك وأنت فى ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بى فأبيت إلا الشرك) .

تكرار لا فى المعطوف يشير إلى استقلال كل من المنافقين والكافرين بالحكم وهو عدم قبول الفدية من كل منهما استقلالا لأن عدم التكرار ربما يوهم أن عدم قبول الفدية إنما لكونها قدمت من الفريقين معاً فأشارت الآية إلى أن الفدية لا تقبل مطلقاً استقلالا ولا اشتراكا . والعطف يقتضى عند علماء العربية التغاير وهذا يشير إلى المنافقين غير الكافرين فالمنافقون كفروا باطناً فقط وأما الكافرون فقد كفروا ظاهراً وباطناً . والتعبير بالموصول للتشنيع عليهم بالصلة وبيان سبب عدم قبول الفدية منهم وهو كفرهم بالله . وفى قوله : « مأواكم النار » حصر لأن الطرفين معرفان الأول بالإضافة إلى الضمير والثانى بأل وهو يفيد أن النار مقصورة عليهم لا تتعداهم إلى غيرهم . فإن قلت أن العاصى سيدخل النار أيضاً فكيف تكون النار مقصورة على المنافقين والكافرين دون سواهم قلت أن العصاة من المؤمنين وإن دخلوا النار فسوف لا تكون مأوى لهم كما نص الحديث

الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله تعالى : من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمـــان فأخرجوه فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حمماً أى احترقوا فيلقون فى نهر الحيـــاة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل) ، وكذلك جملة هى مولاكم فيها حصر أيضاً لتعريف الطرفين . وفصل جملة مأواكم النار عما قبلهـا لأنها استئناف كأن قائلا قال : فماذا جزاؤنا بعد عـدم قبول الفدية منا فقيل : « مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير » .

الأبحاث العامة

الظاهر من إطلاق الفدية أنها تشمل الفداء بالمال وغيره فلا يقبل منهم فداء أصلا لا بالمال ولا بالولد لأنهم فى ذلك الوقت لا يملكون مالا ولا يستطيعون التصرف فى ولد بل رأى بعض العلماء أن الفدية تشمل التوبة فلا تقبل توبة كافر ولا منافق لأن شرط الإيمان أن يكون إيماناً بالغيب أما إذا أصبح إيماناً بمـا يشاهده العبد من الأهوال فهو ليس بإيمان ولذلك لم يتقبل الله التوبة عند الغرغرة لأن الله فى هذا الوقت يكشف لـكل شخص عن بصره فيرى مقعده فى الجنة أو فى النـــار فلو قال الـكافر والمنافق فى هذا الوقت آمنت بالله ورسله لا يقبل منه إيمان ولذلك

لما قال فرعون عند غرقه آمنت لم يقبل منه وقيل له « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » ولكن حمل الفدية على ماهو المتبادر منها وهو ما يبذل من المال لحفظ النفس من النائبة أولى .

فإن قيل كيف يسوى بين المنافق والكافر مع أن المنافق صلى وصام وتصدق وحج وجاهد قلت هذه الأعمال فقدت شرط قبولها عند الله وهو الإيمان فأصبحت لا وزن لها . وقد أخذوا جزاءها فى الدنيا فتركهم المسلمون بدون قتل وغنموا مع المسلمين غنائم وساكنوهم فى ديارهم وآمنوهم فى أوطانهم ، فضلا عن الصحة والنعمة والأمن وغير ذلك من الإنتفاع ، والله لا يظلم الناس مثقال ذرة .

خلاصة المعنى

أدخل الله اليأس فى قلوب المنافقين والكافرين فلم يبق عندهم رجاء فى رحمة الله فأعلن فى كثير من القرآن أن هؤلاء لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً كما أخبر فى آية أخرى أنه لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة . وفى ذلك حسرة أى حسرة جعلنا الله من أهل الجنة وأعاذنا من النار .

قال الله تعالى :

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ •

الإعراب والمفردات اللغوية

الهمزة للاستفهام الإنكارى ودخولها على حرف النفى يقتضى الإثبات كأنه قال : آن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم وفى قراءة ألما والفرق بين القراءتين أن ألما تفيد حصول ما بعدها وفى هذه القراءة تبشير للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأنه يرجى منهم ويتوقع حصول الخشوع منهم . ويأن فعل مضارع مجذوم بحذف حرف العلة . وما نزل معطوف على ذكر الله ومن بيانية ويكونوا منصوب لأنه معطوف على تخشع المنصوب وجملة وكثير منهم فاسقون فى محل نصب على الحال .

وأنى يأنى وآن يئين بمعنى حان يحين على القلب المكانى وأنى بمعنى أدرك والمصدر فى الكل أنى بالتنوين وقوله تعالى : « غير ناظرين أناه » أى غير منتظرين نضجه وإدراكه وأنى الحميم انتهى حره ومنه قوله تعالى : «حميم آن » والخشوع الخضوع وخشع ببصره غضه وبابه منع . والكتاب التوراة والإنجيل . والأمد الأجل والغاية كالمدى والمنتهى وأمد عليه أى غضب والآمد المملوء والسفينة المشحونة وقسا قلبه قسوة صلب وقاساه كابده . والفسق الخروج عن طريق الحق . وهو الفجور أيضاً وفسق عن أمر ربه خرج وفسقت الرطبة عن قشرها خرجت والفويسقة الفأرة لخروجها من جحرها على الناس .

الأسرار البلاغية

التعبير بالاستفهام الإنكارى لشدة عتاب الله للمؤمنين لما أصبحوا عليه من فتور وكسل عن الجهاد والعمل الصالح والمراقبة الكاملة. فقد روى أنهم كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت .

وقد كان جل الصحابة رضوان الله عليهم إذا نزل عليهم القرآن بكوا وخشعوا فلما كثرت عليهم النعم واشتغلوا بالحياة عاتبهم الله على

قسوة قلوبهم وقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه سمع قارئاً يقرأ هذه الآية وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديداً فنظر إليهم فقال هكذا كنا حتى قست القلوب .

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : أما والله لقد استبطأ الله قلوب المؤمنين وهم يقرأون من القرآن أقل مما تقرأون ، فانظروا فى طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق . والتعبير بالموصول فى قوله للذين آمنوا لتفخيم الصلة وبيان أن الصلة كانت سبباً فى العتاب لأن إيمان المؤمن ينبغى أن يحمله على الخشوع ورقة القلب وشدة المراقبة . والتعبير بالمضارع فى قوله تخشع لإفادة الاستمرار وأن الخشوع مطلوب فى الحال وفى الاستقبال بل وفى الماضى لأن الله عاتبهم على عدم تحقيقه فى الماضى وإيثار لفظ الجلالة لتربية المهابة فى قلوب السامعين وإدخال الروعة فى نفوسهم حتى يكون ذلك حاملا لهم على الامتثال وأل فى الحق للعهد الذهنى وهو الآيات التى سبق نزولها وكانوا يتلونها والتعبير عنها بعنوان الحق لحملهم على العمل بما فيها والتدبر فى أسرارها ومعانيها ما دامت حقاً ثابتاً منزلا من لدن الحق تبارك وتعالى .

وقرىء ولا تكونوا فيكون فى الكلام التفات من الغيبة إلى

الخطاب . وفي هذا الالتفات سر عام وسر خاص أما السر العام فهو تنشيط الذهن فإن النفس إذا سمعت الكلام من لون واحد سئمت وملت .

أما إذا انتقل الكلام من لون إلى لون ومن خطاب إلى غيبة ومن غيبة إلى خطاب ومن تكلم إلى غيبة وهكذا تجدد نشاط الذهن وأقبل على الفهم والتدبر .

والسر الخاص هنا أنهم أهل لخطاب الله فيدعوهم ذلك إلى الامتثال فإن هناك فريقاً يجذبه الخطاب الإلهي ويحمله على الطاعة والخضوع وتكون لا على هذا ناهيه والفعل بعدها مجزوم وبناء الفعل للمجهول فى قوله : « أوتوا الكتاب » لتعين الفاعل وأل فى الكتاب للجنس الشامل للتوراة والإنجيل والتعبير بمن قبل يفيد قرب العهد بهم فيجب أن يعتبروا بهم وبما حدث لهم ، وإسناد القسوة إلى القلوب إشارة إلى أنها تمكنت منهم فضل تمكن والتقييد بالجملة الحالية فى ختام الآية لبيان أنهم وصلوا فى القسوة والتهاون إلى الذروة فأصبحوا فاسقين خارجين عن كل حد متجاوزين كل أمر .

وكان كل من اليهود والنصارى فى أوائل أمرهم يحول الحق بينهم وبين كثير من شهواتهم ، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل

خشعوا لله تعالى ورقت قلوبهم فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء وداخلتهم القسوة وزالت عنهم الروعة التى كانوا يجدونها عند سماع الكتابين وأحدثوا ما أحدثوا مما سطره التاريخ فى صفحاتهم السوداء . واعلم أن القسوة مبدأ الشرور وتنشأ من طول الغفلة عن الله .

وروى عن عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا الكريم قال : (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسى بعيد عن الله عز وجل ، ولا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عباد والناس رجلان مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية . ومن أحس بقسوة فى قلبه فليهرع إلى ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه يرجع إليه حاله ويعود له اتصاله) .

ومن وصية بعض العلماء لأهله . اعلموا أن للباقى بالماضى معتبرا ، وللآخر بالأول مزدجرا ، والسعيد من لا يغتر بالطمع ولا يركن إلى الخدع ، ومن ذكر المنية نسى الأمنية ومن أطال الأمل نسى العمل وغفل عن الأجل .

الأبحاث العامة

سمعنا قول الله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » وسمعنا فى آيتنا هذه أن الخشوع يكون عند سماع ذكر الله . فكيف نوفق بين هذا الوجل والخشوع عند ذكر الله وبين قوله تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . والجواب أن النفس تخشع وتخاف وتوجل عند ذكر آيات الله المنذرة المتوعدة بالعذاب ، وتطمئن عند ذكر الآيات المبشرة التى تتحدث عن الجنة وأهلها والغفران والرحمة التى وسعت كل شىء . وقد جمعت الحالتين آية كريمة هى قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » .

والمراد بذكر الله وما نزل من الحق واحد وهو كتاب الله وقد ذكره بعنوانين كريمين كونه ذكر الله وكونه حقاً منزلا من عند الله الحق . وقيل معناهما متغايران فالذكر قول لا إله إلا الله وما شابهها من ألفاظ الذكر وما نزل من الحق هو القرآن ويكون العطف من قبيل المغايرة ويكون الترتيب من الأدنى إلى الأعلى لأن القرآن أفضل الذكر . وقال الطيبى : يمكن أن يحمل الذكر على القرآن وما نزل من الحق على نزول السكينة وأيد كلامه

بما رواه البخارى والترمذى عن البراء قال : كان أسيد بن حضير يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين أى حبلين فغشيته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال : (تلك السكينة تنزلت للقرآن ولو قرأت حتى الصباح لبقيت يراها الناس ما تتوارى عنهم) وذلك بعيد والرأى الأول هو الظاهر وفسر العلماء الخشوع للقرآن بالانقياد التام لأوامره ونواهيه والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام من غير توان ولا فتور . واللام فى قوله : لذكر الله للتعليل أى ألم يأن لهم أن ترق قلوبهم لأجل ذكر الله تعالى وكتابه الحق النازل فيسارعوا إلى الطاعة على أكمل وجوهها .

والأولى فى ذكر الله المعروف بين النـــاس أن يكون سراً وفى خشوع وتضرع ليكون أقرب إلى الإخلاص وليكون مطابقاً لأوامر الله تعالى حيث يقول : « واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين » وقد سمع الرسول صلى الله عليه وسلم قوماً يرفعون اصواتهم بالذكر والدعاء فقال : (أيها الناس اربعوا على أنفسكم أى اشفقوا عليها فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيرا) . والله يقول : « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين » .

فسر العلماء الاعتداء فى الدعاء بوجوه منها الجهر الكثير والصياح ومنها أن يدعو فى محال أو بمعصية . ومن هذا نعلم حكم حلقات الذكر المعروفة عند الناس فإن فيها صياحاً وجهراً يصم الآذان وفيها أيضاً حركات واهتزازات تمنع الخشوع وتصبح أقرب إلى اللهو منها إلى الذكر . وقد كانت مجالس الذكر فى عصر النبوة عبارة عن رجل يقرأ القرآن تــلاوة من غير طرب ولا ترنم ويجلس الصحابة للاستماع إلى آيات الله ولم يرد عنهم هــذه الانحرافات ولا رفع الأصوات هدى الله الناس إلى اتباع دينهم وجعلنى من المهتدين المتمسكين بالسنة واليقين . .

خلاصة المعنى

أما جاء الوقت الذى يرجع فيــه المؤمنون إلى ربهم وتمتلىء قلوبهم بالخشية منه وترق أفئدتهم عند تلاوة آياته الحقة المنزلة من عنده . وليعتبروا بمـا حدث لمن سبقهم من الأمم كاليهود والنصــارى الذين ضلوا مع أن الله أنزل عليهم التوراة والإنجيل هدى ورحمة ونورا ولكنهم لطول آجالهم واتساع أعمارهم قست قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة وأصبحوا فساقا خارجين عن دينهم بالكلية . وقـد ورد فى ذم الغفلة التى تؤدى إلى قسوة القلب كثير من النصوص الشرعية قال تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم

كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ،أولئك هم الغافلون » .

ومن بركة هذه الآية أن كثيراً من الفساق سمعوها فى وقت حانت منهم لحظة تدبر ووافقت رضوان الله فتـــابوا وأنابوا وأصبحوا من أولياء الله تعـالى فقد حدث عبد الله بن المبارك عن بدء زهده فذكر هذه الآية ، وحدث الفضيل بن عياض عن سبب توبته فقـال : عشقت جارية فواعدتنى ليلا فبينما أنا أتسلق الجدران إليها إذ سمعت قارئاً يقرأ « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » فرجعت القهقرى وقلت بلى والله قد آن . اللهم إنى قد تبت إليك وجعلت توبتى إليك جوار بيتك الحرام .

قال الله تعالى :

أَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

الإعراب والمفردات اللغوية

أن واسمها وخبرها فى محل نصب مفعول اعلموا وبعد ظرف زمان منصوب بالفعل يحي وقد حرف تحقيق يختص بالفعل المتصرف الخبرى المثبت المجرد من ناصب وجازم فإذا وقعت قد قبل الماضى كما هنا أفادت ثبوت الفعل وتحققه نحو « قد أفلح من زكاها » . وكذلك تفيد قرب الفعل من زمن الحال فهى هنا تفيد أن التبيين الإلهى مع كونه مؤكداً محققاً هو أيضاً وقع قريباً وفى هذا إشارة إلى أنه لا عذر للجاهلين ولا للناسين فلم تمض مدة حتى يكون هناك عذر للناس . ولعل معناها الترجى فى المحبوب والإشفاق فى المكروه ولا تكون إلا فى الأمر المتوقع نحو لعلكم تعقلون وقد استشعر منها بعض اللغويين معنى التأكيد وهو غير ظاهر لأن المتوقع لا يؤكد وقد تأتى لعل

بمعنى التعليل ومنه قوله : « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » أى لكى يحصل منه التذكر والخشية .

العقل : يقال عقل يعقل من باب ضرب ويطلق عليه الحجر كما فى قوله تعالى : « هل فى ذلك قسم لذى حجر » وكذلك يطلق عليه النهى كما فى قوله : « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » ويطلق العقل ويراد منه الدية والمعقل بكسر القاف الملجأ . والعقال صدقة عام فى الزكاة ومنه قول أبى بكر (لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه) .

الأسرار البلاغية

اشتمل قوله تعالى : اعلموا أن الله يحيي . على تأكيد بأن واسمية الجملة وتكرار الإسناد لأن الفعل يحيي مسند إلى فاعله وهو ضمير الذات العلية وجملة الفعل والفاعل مسنده إلى لفظ الجلالة والأمر باعلموا كل هذه التأكيدات لعدم عمل الناس بما يعلمون فنزلوا منزلة المنكرين أو أن الناس لا يؤمنون بربهم وينكرون خالقيته ويقولون الطبيعة وينكرون على الله نعمه وقدرته فجاء التأكيد رداً على أمثال هؤلاء . كذلك هو موجه إلى كل من لا يؤمن بحياة أخرى لأن من اعتبر بحياة الأرض

بعد موتها يؤمن قطعاً بقدرة الله على إحياء الناس بعد موتهم : اسمع إلى القرآن حيث يقول : « وأنزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتـا كذلك الخروج » . وقال : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير » الآية من سورة فصلت . والتعبير بالمضارع فى يحيي دليل على استمرار القدرة فى الحال والاستقبال . وقد عبر عن الاحياء بالماضى فى آيات أخرى فقال : « هو الذى أحياكم ثم يميتكم » كما عبر عن إنشاء الأرض بالماضى فى الآيات السابقة وهكذا استوفى الأزمنة فدل على اتساع قدرته واستيعابها الأزمنة كما أنه عبر عن استيعاب القدرة لجميع الأشياء فى قوله سابقاً « وهو على كل شيء قدير » . وفى قوله يحيي إستعارة تبعية شبه اهتزاز الأرض وزيادتها بالحياة التى هى للحيوان بنفخ الروح فيه أو تقول شبه إعطاء الأرض الخصوبة والنمو بالإحياء بجامع الانتقال من حال إلى حال وتنوسى التشبيه وادعى أن المشبه أصبح فرداً من أفراد المشبه به واستعرنا اللفظ الدال على المشبه به وهو الإحياء للمشبه واشتققنا منه يحيي بمعنى يعطى الأرض الخصوبة والزيادة على سبيل

الاستعارة التصريحية التبعية أما أنها تصريحية فلوجود المشبه به وأما أنها تبعية فلجريانها فى الفعل تبعاً لجريانها فى المصدر وكذلك الحال فى موتها شبه سكون الأرض ويبوستها بالموت بجامع عدم النفع فى كل أو عدم الحركة على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية أو هو تمثيل لأثر الذكر فى القلوب وفى يحيى وموتها طباق من نوعين لأن الأول فعل والثانى اسم وهو من المحسنات البديعية . وال فى الأرض للعهد الذهنى . فإن قلت هل هناك فرق فى قوله يحيى الأرض بعد موتها وقوله فى سورة العنكبوت فأحيا به الأرض من بعد موتها . قلت إن الظروف فيها توسع فإن أراد الله القرب قال بعد موتها من غير من وإن أراد البعد قال من بعد موتها إشارة إلى أن القدرة صالحة لإحياء الأرض الميتة سواء كان موتها قريباً بأن تركت من غير زرع شهراً حتى يبست أو كان موتها بعيدا كأول إحياء لها بالماء بعد تطاول زمن الموت عليها فعبر بقوله « هنا يحيى الأرض بعد موتها » وعبر هناك بقوله من بعد موتها . وقد أجاب الخطيب الإسكافى فى كتابه درة التنزيل وغرة التأويل ما ملخصه : « أن الآيات التى ذكرت فيها من كانت ضمن سؤال وجه إلى الكافرين حيث قال لهم « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد

موتها ليقولن الله » والمقصود بالسؤال تقرير الكافرين بأن الذى بدأ الخلق وبدأ إحياء الأرض هو الله والذى يفيد البدء لفظة من فإنها لابتداء الغاية بخلاف سورة الحديد فالآية فيها ليست تقريراً للكافرين وإنما هى بيان للقدرة فى كل وقت وكذلك فى سورة البقرة والجاثية وأمثالها . والتعبير بنون العظمة فى قوله : « قد بينا » للتفخيم وإظهار الكبرياء الذى هو صفة مدح فى حق الله تعالى فهو القائل « العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما عذبته » . واقتران الفعل بقد يفيد تحقيقه كما أشرنا .

وتقديم الجار والمجرور فى قوله : لكم الآيات للمسارعة إلى تبشيرهم بأن البيان لمنفعتهم فيسارعوا إلى الطاعة وال فى الآيات للاستغراق وتشمل الآيات الكونية من تسخير الشمس والقمر والسحاب وإنزال الماء وإحياء الموتى وغير ذلك والآيات القرآنية ومعنى تبيين الأولى أحداثها واضحة جلية يراها كل ناظر ومعنى تبيين الثانية ذكر الآيات وإنزالها مفصلة مشتملة على سعادة الدنيا والآخرة وفى لعل استعارة لأن التوقع محال على الله لأنه يعلم ما كان وما سيكون وإجراء الإستعارة أن يقال شبه طلبه تعالى من عباده التعقل مع وجود أسبابه برجاء الراجى من صاحبه أمراً هين الحصول بجامع أن كلا منهما قد يقع وقد لا يقع

مع رجحان الوقوع ثم استعير كلمة لعل من المشبه به إلى المشبه على سبيل الاستعارة التبعية فى الحرف وقد يكون فيها استعارة تمثيلية بأن نشبه هيئة خلقه تعالى إياهم مستعدين للتعقل وطلبه منهم وهم متمكنون من التعقل جامعون لأسبابه بهيئة منتزعة من الراجى ورجائه من المرجو منه شيئاً سهل المنال فيستعمل فى الهيئة الأولى ما حقه أن يستعمل فى الثانية فيكون هناك استعارة تمثيلية قد صرح من ألفاظها بما هو العمدة فى انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى كلمة لعل التى هى فى الأصل للترجى أو تجعل لعل بمعنى كى فتكون تعليلية ولا تجوز فيها كما فى قوله تعالى : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . أى لكى يحصل منه التذكر والاتعاظ أو الخشية والرهبة وإما أن نقول أن الترجى قد يكون من جهة المتكلم كما هو الشأن فى الاستعمال لأن معانى الإنشاءات قائمة بالمتكلم كما تقول لعل الله يرحمنا وقد يكون الترجى من جهة المخاطب تنزيلا له منزلة المتكلم بجامع الملابسة فى كل فيكون ذلك من قبيل المجاز المرسل علاقته الملابسة وإيثار كلمة تعقلون على غيرها إشـــارة إلى أن الآيات هنا واضحة كل الوضوح فلا تحتاج إلا إلى مجرد تعقل أما غيرها فقد يحتاج إلى نوع بحث وتدبر فتختم بقوله : لعلهم يتفكرون وقد يكون المقصود

بيان تقصيرهم فى العمل بما توجبه الدلائل فيقال لعلهم يتقون أو يشكرون وهكذا لكل مقام مقال وكتاب الله أوفى على الذروة فى هذا الشأن فعجز الكل عن محاكاته .

الأبحاث العامة

قد يقول قائل أن الدعوى لا تثبت عند المناطقة إلا بالدليل وهنا فى الآية ساق الكلام على سبيل الأمر فكيف يلزم الناس بعقيدة من غير أن يسوق دليلها قلنا أن البديهيات التى تشاهد ويرى آثارها واضحة لا تحتاج إلى استدلال ويجب التسليم بها لأن طلب الدليل عليها غير جائز فتوضيح الواضح من المشكلات ولما كان كل إنسان يدرك أن الماء إذا نزل من السماء إلى الأرض اليابسة اهتزت وزادت وصلحت للنبات وخرج منها البذر زرعاً يانعاً لم يحتج إلى دليل فوجب أن يؤمن باعتقاده فقط فقال : «اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها» وهذا كما قال الله فى حق السماء «رفع السموات بغير عمد» ثم استدل على ذلك بالمشاهدة فقال «ترونها» . أو نقول أن الله بين الأدلة على سعة قدرته وشمول علمه وحكمته وأنه العزيز الغالب على كل شيء فلم يبق هنا إلا أن يأمر العباد بالامتثال والتصديق . فإن قيل فما مناسبة

هذه الآية لما قبلها قلنا إنهـــا إشارة إلى أن القلوب القـاسية التى طال صدؤها بالغرور والغفلة لا تتـأبى على فضـل الله ورحمته فهو قادر عن أن يحييهـا بالذكر بعد الموت بالغفـلة ، ويخلق فيهـا الحياة بعد الموت ، ويخلق فيهـا الرقة بعد القسوة ، والاتصال بعد الجفوة كما قدر على إحياء الأرض اليابسة الجماد بعد موتهـا دهوراً ويبسها آماداً طويلة فهو حث للمؤمنين على معالجة قلوبهم وإبعاد لليأس عن الجفاة القساة حتى يرجعوا إلى حظيرة القدس ويرتشفوا من معين الوحى . وسيجدون الإقبال من الله سريعاً . والرضا حثيثاً .

وفى الحديث القدسى يقول الله تعـالى : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالهـا أو أزيد . ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة سيئة مثلهـا أو أغفر ومن تقرب منى شـــبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً ومن أتانى يمشى أتيتـه هرولة .

خلاصة المعنى

وجب على كل مصدق بآيات الله أن يعتقد أن الله هو الذى يحيي الأرض بعد موتهـا ويخصبها بعـد جدبهـا ويأخـــذ

من هذا الاعتقاد اعتقاداً آخر وهو قدرة الله على إحياء النـاس من قبورهم بعد موتهم للبعث وينتقل من هذين الإعتقادين إلى العمل الصـالح والإستعداد لليوم الآخر لأن هذا مقتضى العقل الذى ختم الله به الآية الـكريمة وبذلك تصبح الآية دليـلا على ما فيـه سعادة الدارين .

قال الله تعالى :

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ •

الاعراب والمفردات اللغوية

قرىء المصدقين بتشديد الصاد أى المتصدقين فقلبت التاء صاداً وأدغمت فى مثلها فتكون الآية فى شأن المنفقين وقرأ ابن كثير المصدقين بتخفيف الصاد أى الذين صدقوا الله ورسوله ومنه قوله تعالى : « والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون » . والصدق ضد الكذب . والصدقة ما أعطيته فى ذات الله والصداق بالفتح مهر المرأة . والمتصدق معطى الصدقة . وأقرضوا معطوف على المصدقين لأن المصدق إسم فاعل ففيه معنى الفعل وابن مالك يقول :

واعطف على اسم شبه فعل فعلا   وعكسا استعمل تجده سهلا

وجملة يضاعف فى محل رفع خبر إن ولهم أجر خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة حالية من الضمير المجرور فى لهم الأولى

الأسرار البلاغية

التأكيد بإن واسمية الجملة فى قوله : « إن المصدقين » للاهتمام وتقوية الحكم . وأل فى المصدقين للاستغراق أى أن الحكم بالمضاعفة يشمل كل مصدق ومصدقة ، والتعبير بلفظ الجلالة فى قوله : « وأقرضوا الله » لتربية المهابة وإدخال الروعة وطمأنة العاملين على ثوابهم . ووصف القرض بالحسن ليكشف عن الصدقة التى تستتبع الثواب وليخرج القرض الذى يراد منها الاستغلال وانتهاز الفرصة . والتضييق على المحتاجين والربا الفاحش وما إلى ذلك من القصد السيء المحرم . ومعنى المضاعفة تكثير الثواب إلى سبعمائة ضعف بل إلى ما شاء الله من الأضعاف والله واسع عليم وبناء يضاعف للمجهول لتعين الفاعل وهو الله سبحانه فلا يملك أحد ثواب أحد ولا عقابه وإنما ذلك مختص بالله والتنكير فى أجر يفيد التعظيم والتفخيم وأنه أجر عظيم لا يستطيع أحد أن يكتنه كنهه ولا يعرف أحد مقداره ووصفه بالكريم زيادة فى عظمته وتذييل الآية بذلك تطمين للمصدقين وحث لهم على المسارعة إلى هذا العمل الصالح . أما فى التعبير بقوله : « وأقرضوا الله » فقد تقدم لك بيانه .

الأبحاث العامة

فى الآيات السابقة قال آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا وهنا بدأ فى ثواب المصدقين وثنى فى الآية التى بعدها بالذين آمنوا بالله ورسله فلم خالف الترتيب أقول السر فى ذلك أن الآية الأولى كانت فى خطاب الكافرين تأمرهم بتحصيل الإيمان لأنه شرط فى قبول الإنفاق وهنا يبين جزاء المؤمنين الذين امتثلوا فتصدقوا فأصبح المهم هو ذكر ثواب المتصدقين لأن إيمانهم أصبح مفروغاً منه بعد قوله : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » وفى هذا إشعار بأنهم سارعوا الى تنفيذ الأمر الأول وهو آمنوا وأنفقوا فسارع لهم فى ذكر ثواب الإنفاق . وشرط القرض حتى يكون حسناً أن يكون لذات الله لا رياء فيه وأن يكون خفية وأن يكون بلا منة وأذى وأن يكون فى موضعه من المحتاجين وأن يكون المال حلالا طيباً . وان شئت التوسع فارجع لما ذكرناه فى مثله .

ومناسبة الآية لما قبلها أن الله لما ذكر مزايا المؤمنين فى قوله : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات... الخ » ذكر هنا ثواب المنفقين ليتعادل الأمران فى الذكر ومضاعفة الأجر وبيان الجزاء العظيم .

خلاصة المعنى

إن الذين تعودوا التصدق والإنفاق من الذكور والأناث وقدموا الطيب من أموالهم ابتغاء رضوان الله قد أعد الله لهم ثواباً مضاعفاً أضعافاً كثيرة وادخر لهم ثواباً عظيما فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون .

قال الله تعالى :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ
وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَحِيمِ .

الإعراب والمفردات اللغويه

يقال صدق فى الحديث وصدق فلاناً الحديث والصديق الكثير الصدق وكان لقب أبى بكر شيخ الخلفاء . والشهداء جمع شهيد وهو الشاهد والأمين فى شهادة والذى لا يغيب عن علمه شىء وسمى القتيل فى سبيل الله شهيداً لأن ملائكة الرحمة تشهده أو لأن الله تعالى وملائكته يشهدون له بالجنة فهو فعيل بمعنى مفعول ويمكن أن يكون من فعيل بمعنى فاعل لأنه ممن يستشهد يوم القيامة على الأمم الخالية أو لسقوطه على الشاهدة وهى الأرض أو من الشاهد بمعنى الحاضر لأنه حى عند ربه ولأنه يشهد

ملكوت الله وملكه . وأنا أقول أنه سمى شهيداً لأن دمه سيبقى متفجراً يشهد عليه أنه قتل فى المعركة ويؤيد ما أقول ماثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما من مكلوم يكلم أى ما من مجروح يجرح فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى اللون لون دم والريح ريح مسك). رواه البخارى . ولذلك كان من أحكام الشهيد أن لا يغسل ليبقى دمه معلناً جهاده . والجحيم إسم من أسماء النـــار وكل نار عظيمة فى مهواه فهى جحيم . ومنه قوله تعالى . « قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم » .

واسم الموصول مبتدأ وجملة آمنوا صلة الموصول لا محل لها من الإعراب وأولئك إسم إشارة مبتـدأ ثان وهم ضمير فعل والصديقون خـــبر المبتدأ الثانى وجملة المبتدأ الثانى وخبره خبر الأول والموصول الثانى كالأول .

الأسرار البلاغية

التعبير بالموصول فى المسند إليه لتفخيم ما فى ميز الصلة من الإيمان بالله ورسله وإيثار لفظ الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة والإشارة إلى قدرة الله على إثابة الطائعين وتعـــذيب العاصين وجىء بالمبتدأ الثانى إسم إشارة ليفيد أن الذين حكيت

خصالهم الحميدة متميزون بذلك أكمل تمييز منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة حتى أصبحوا يشار إليهم بالإشارة الحسية وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم في الفضل والجملة حاصرة لتعريف الطرفين ووجود ضمير الفصل أيضاً لأنه من أدوات القصر والإضافة في قوله عند ربهم للتشريف فهو بيان لفخامتهم الإضافية بعد فخامتهم الذاتية وتقديم الجار والمجرور في قوله لهم أجرهم للتخصيص أي هذا الثواب العظيم لهم لا لغيرهم والعطف بين أجر ونور ليفيد اجتماع الوصفين معاً لهم .

والوصل في قوله والذين كفروا لأن الجملتين خبريتان فبينهما التوسط بين الكمالين والتعبير بالوصول في قوله والذين كفروا للتشنيع عليهم بكفرهم وبيان السبب فيما حدث لهم من العذاب وعطف كذبوا على كفروا لزيادة التشنيع ولبيان سبب الكفر وهو تكذيبهم بآيات الله والإضافة إلى نا في قوله بآياتنا يفيد تقبيحاً لهم أكثر حيث كذبوا بآيات صاحب القدرة الشاملة والعلم الواسع والحكمة البالغة وأل في الجحيم للعهد أي النار المعهودة التي أعدت للكافرين وفي هذا تخويف أي تخويف .
والتعبير بأنهم أصحابها إشارة إلى دوام عذابهم وطول مكثهم

وخلودهم فيها كما يخلد أصحاب البيت فى مساكنهم التى يملكونها .

الأبحاث العامة

بعد أن بين الله ثواب المؤمنين وثواب المنفقين وبين أن المؤمنين لهم نور وأن المنافقين فى ظلمة وعذاب جىء بالآية التى معنا كالإجمال لما تقدم والخلاصة لكل ما فصل والتعميم الشامل فى الحكم كأنه قال وخلاصة القول من آمن فله نور وأجر ومن كفر فله نار وظلمة ، أما النار فأخذناها من قوله الجحيم وأما الظلمة فأخذناها من حقيقة جهنم وهى أنها بئر عميقة الغور شديدة الظلمة . فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمع وجبة فقال النبى : أتدرون ما هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال هذا حجر رمى به فى النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوى فى النار الآن حتى انتهى إلى قعرها وقال : (أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة) . رواه الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء فإن قلت ما السر فى جمع رسل له هنا وإفراده فى قوله سابقاً آمنوا بالله ورسوله قلنا إن الآية السابقة كانت خطاباً لأمة محمد لأنهم هم الذين يتأتى خطابهم فقال بالإفراد آمنوا بالله ورسوله

أما الآية التى معنا فهى حكم عام لجميع الأمم ولذلك جعل المسند إليه إسم موصول كما أشرنا لأن إسم الموصول يشبه أسماء الشرط فى العموم ولذلك قد يقترن خبره بالفاء فتقول الذى يكرمنى فهو محبوب .

كذلك تفيد الآية أن الإيمان لا ينجى صاحبه إلا إذا كان إيماناً بجميع رسل الله فإن من كذب رسولا فقد كذب الله والله يقول : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » . فلا يقبل من آمن بعيسى أو بموسى ولم يؤمن بمحمد بعد بعثته . وقد روى مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) . والعندية فى قوله عند ربهم عندية منزلة لا عندية مكان . قال الألوسى روى عن الضحاك أن الآية نزلت فى ثمانية نفر سبقوا أهل الأرض فى زمانهم إلى الإسلام وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وحمزة وطلحة والزبير وسعد وزيد . وقال صلى الله عليه وسلم (من فر بدينه من أرض إلى أرض مخافة الفتنة على نفسه ودينه كتب عند الله صديقاً فإذا مات قبضه الله شهيداً) وتلا هذه الآية .

والأولى جعل الآية عامة تشمل كل من دخل فى وصفها من الأولين والآخرين . كذلك تفيد الآية أن مرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ولهذا قدمهم عليهم هنا وفى سورة النساء . وفى الحديث (اثبت أحدٌ فإنما عليك نبى وصديق وشهيد) . أخرجه البخارى فى كتاب الفضائل .

خلاصة المعنى

من آمن بالله وجميع رسله الذين أرسلهم إلى الناس وأيدهم بالمعجزات لهم فضيلة الصديقين والشهداء ولهم المنزلة العالية عند ربهم ولهم الثواب العظيم والنور الكامل يوم القيامة فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأما من كفر بربه وكذب بآياته ولم يؤمن بالله ورسله فقد وجب له الخلود فى النار وأصبح من أهلها .

قال الله تعالى :

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ
وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ
ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا
وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ
وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ

المفردات اللغويه والاعراب

لعب من باب علم ، ولعب الصبي بفتح العين سال لعابه ولُعاب الشمس ما تراه في شدة الحر مثل نسج العنكبوت والمراد به هنا أنهما لا ثمرة فيهما سوى التعب والمراد باللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه وفسرهما قتادة بالأكل والشرب . وقال مجاهد كل لعب لهو . وقيل اللعب ما رغب في الدنيا ، واللهو

ما ألهى عن الآخرة وقيـــل اللعب الاقتناء واللهو النساء قال فى المختار ألهاه شغله ومعنى لو أردنا أن نتخذ لهواً أى امرأة أو ولداً والزينة ما يتزين به كالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة وزان من باب باع .

والتفاخر التعاظم بالأنساب وفى القاموس الفخر التمدح بالخصال وتفاخروا فخر بعضهم على بعض والفاخر الجيد من كل شيء .

وقد أغرب بعض المولعين بالسجع فقال لعب كلعب الصبيان ولهو كلهو الفتيان وزينة كزينة النسوان وتفاخر كتفاخر الأقران وتكاثر كتكاثر الدهقان .

والغيث المطر وغاث الأرض الغيث أصابها وبابه باع والكفار الجاحدون المنكرون لله أو الكفار الزراع لأن الزارع يستر البذر فى الأرض بالتراب والكفر ضد الإيمان وكفر بالله من باب نصر وجمع الكافر كفار والكفر جحود النعم وهو ضد الشكر والكفر بالفتح التغطية والكافر الليل المظلم وكل شيء غطى شيئاً فقد كفره ومنه سمى الكافر لأنه يستر نعم الله عليه .

ومعنى يهيج يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له ويطلق على ما يجف

بعد خضرته ونضارته وفى مختار الصحاح هاج الشيء ثار وبابه باع . هياجا بكسر الهاء وهيجاناً وهاج النبت يبس والهيجاء الحرب والحطام ما تكسر من اليبيس وهو الهشيم والحياة مبتدأ ولعب خبر ومابعده معطوف عليه والكاف فى كمثل إما فى موقع نصب على الحال وإما فى موقع رفع على الصفة كما قال القرطبي أو الخبرية كما قال أبو السعود بتقدير مضاف أى مثل الحياة الدنيا كمثل فإن قلت فما صاحب الحال فى حالة النصب قلنا هو الضمير المستتر فى لعب لأنه فى معنى الوصف المشتق والكفار مفعول مقدم ونبات فاعل مؤخر وجملة أعجب فى محل جر صفة لغيث ومصفراً حال من المفعول لأن الرؤية بصرية لا تنصب إلا واحداً وما نافية والحياة مبتدأ ومتاع خبر والدنيا صفة وهى تأنيث الأدنى وهى فعلى بضم الفاء وحكى ابن قتيبة كسر دالها وهى مأخوذة من الدنو وهو القرب وقعت الواو لاماً لفعلى وصفا فقلبت ياء ولفظها مقصور غير منون حتى ولو حذفت الألف واللام منها وآخرها ألف تأنيث مقصورة سميت بذلك إما لدنوها من الزوال وإما لسبقها الحياة الأخرى واختلف فى حقيقتها فقيل هى ما على الأرض فقط من جو ومخلوق إلى قيام الساعة وقيل : سائر المخلوقات من علوى وسفلى وجواهر وأعراض .

الأسرار البلاغية

فصل جملة اعلموا عما قبلها لأنها إنشائية وما قبلها خبرى فبين الجملتين كمال الانقطاع بلا إيهام وهو من مواضع الفصل عند البلغاء . وأن المفتوحة كفت بما عن العمل فهى فى تأويل مصدر مفعول اعلموا وهى مع ذلك تفيد القصر وهو هنا قصر موصوف على صفة لأن المقصور عليه هو المؤخر وهو قصر قلب لأن المخاطب بانهماكه فى الدنيا وجمعها يعتقد أنها دائمة وجد فقلب الله عليه اعتقاده فقال : إنما هى لعب لا جد وفانية لا دائمة والدنيا وصف كاشف للحياة وهو ذريعة إلى الخبر لأنها تشعر بدنو زوالها إلى ما يأتى من الأخبار .

والتنكير فى لعب ولهو وما عطف عليه للتحقير ، وفى قوله : كمثل غيث تشبيه مركب وتستطيع أن تجعل من كل من المشبه والمشبه به هيئة منتزعة فتقول : شبه حال الدنيا وسرعة انقضائها مع قلة جدواها بنبات نزل عليه الغيث فاستوى واكتهل وأعجب به الزراع فبعث الله عليه الآفة فهاج واصفر وصار حطاما تذروه الرياح فهو تمثيل لسرعة زوالها والتعبير بثم للدلالة على تراخى ما بين كل حالة وحالة .

وفى هذا إشارة إلى أن المؤمن لا ينبغى أن يغتر بنعيم الحياة مهما تراخى وقتها وتطاول فإنه لابد إلى زوال ، والخطاب فى قوله فتراه لكل من يتأتى منه الخطاب وهو دليل على أنه مشاهد لكل إنسان فلا عذر لغافل .

قال أبو عبد الله محمد الخطيب الإسكافى فى كتابه « غرة التأويل » ما ملخصه ·

فإن قيل لم خص سورة الحديد بقوله « ثم يكون حطاماً » وسورة الزمر بقوله « ثم يجعله حطاماً » أجبنا عن ذلك بأن الآية السابقة فى سورة الزمر تشتمل على أفعال منسوبة إلى الله فأول الآية يقول · « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » .

فناسب إسناد الفعل إلى الله فى سورة الزمر ليتناسب مع أول الآية ، أما هنا فى آية الحديد فلم يسند الفعل فيه إلى الله لفظاً فناسب أن يكون الكلام على نسق واحد هنا وهناك فلا يصلح فى كل مكان إلا ما جاء فيه من اختيار الكلام ا هـ .

وأنا أقول : إن السر فى أن سورة الزمر هى التى أسند الفعل

فيها لفظاً إلى الله تعالى دون سورة الحديد هو أن سورة الحديد مدنية والمجتمع أصبح مجتمعاً مؤمناً لا يحتاج إلى إسناد الأفعال إلى الله لفظاً لأن عقيدته أصبحت راسخة فى ذلك يؤمن بأن الله هو الخالق لكل شيء ، أما سورة الزمر فهى مكية والمجتمع كان لا يزال مجتمعاً تطغى عليه الوثنية ولا مانع عنده فى عقيدته أن يسند أفعالا إلى الأصنام ؛ لذلك صرحت آية الزمر بنسبة الأفعال إلى الله تعالى درءاً للمفسدة ، وتصحيحاً للعقيدة . فسبحان من هذا كلامه وهذا ترتيبه .

وتقديم المسند فى قوله : وفى الآخرة عذاب للتخصيص كأن عذاب الدنيا وآلامها بالنسبة لعذاب الآخرة لا شيء . والتنوين فى عذاب للتنكير والتنويع أى أنه عذاب من نوع خاص لا يكتنه كنهه ولا يدرك هوله ووصف العذاب بالشدة مما يزيد فى هوله ، وقدم ذكر العذاب على المغفرة والرضوان لأنه المناسب لغرور الدنيا والانهماك فى جمعها .

والتنكير فى مغفرة ورضوان يفيد فخامة كل منهما ذاتياً وقوله من الله يفيد فخامتهما الإضافية ، وقوله : وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور جملة تذييلية جامعة لكل ما تقدم من أوصاف الحياة

الدنيا والقصر هنـا بالنفى والاستثناء وهو أصرح وأدق أدوات القصر وهنا قصر موصوف على صفة .

وهى متـاع غرور لمن اطمأن بهـا ولم يجعلها ذريعة للآخرة ومطية لنعيمها روى عن سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة .

الأبحاث العامة

١ — مناسبة الآية لمـا قبلها أن الإنسان قد يبخل بالإنفـاق خوفاً من ضياعه فى هذه الحياة فنفره الله من الشح وبين له أن الدنيا فانية وأن الآخرة حساب وعذاب فلينقذ نفسه من العذاب الشديد وليسع إلى رضوان الله ومغفرته . وقال القرطبى فى وجه الاتصال : إن الإنسان قد يترك الجهاد خوفاً على نفسه من القتل فبين أن الحياة الدنيـا فانية منقضية ، فلا ينبغى أن يترك أمر الله محافظة على دنيا لا تبقى ، وأنا أرجح المناسبة الأولى لأن الآية السابقة كانت إلى عهد قريب تمدح المتصدقين الذين أقرضوا الله قرضاً حسنا أما ذكر الجهاد فقد بعد به العهد .

٢ — فإن قلت لم شبهت الدنيا بالماء قلت : أن الحـكماء قالوا إنما شبه

الله الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر فى موضع كذلك الدنيا لا تثبت عند واحد ولأن مجرى الماء لا يستقيم على اتجاه واحد كذلك الدنيا ، ولأن الماء يذهب ويتبخر كذلك الدنيا تفنى ، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يلامسه ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها . ولأن الماء إذا كان بقدر وفى حدود متوسطة كان نافعاً منبتاً وإذا جاوز المقدار كان ضار مهلكا كذلك الدنيا الكفاف منها ينفع والفضول يضر ويطغى . وفى الحقيقة التشبيه إنما هو بالزرع الذى ينبت بالغيث .

وفى حديث النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال له رجل : أريد أن أكون من الفائزين قال : (دع الدنيا وخذ منها قليلا كالماء الراكد فإن القليل منها يكفى والكثير يطغى) . وفى صحيح مسلم يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنع بما آتاه الله) .

واعلم أنه ليس من مقصود الآية وهذه الأحاديث أن تعرض عن الدنيا وأن تعزف عنها وأن تدخل إلى صومعة تترهب فيها ، فإن هذه الفكرة سيطرت على المسلمين وقتاً طويلا حتى أضعفتهم ونقلت كل الثروة من أيديهم فتلقفها أعداؤهم من اليهود وتحكموا فى المسلمين لأنهم أصبحوا عالة على الأمم فى صناعتهم وزراعتهم ،

ولـكن الإسلام يدعو إلى العمل وجمع المـال من حلال والزهد أن يكون المال فى يدك لا فى قلبك فاكتسب ما تشاء من وجوهه الشرعية ولـكن أنفق منه فى وجوه الخير وأداء الزكاة وصلة الرحم وفى مقابلة العذاب الشديد بأمرين المغفرة والرضوان إشارة إلى غلبة الرحمة وأنه من باب لن يغلب عسر يسرين ولم يصف الله العذاب بأنه من عنـــده كما فعل بالمغفرة ليعلمنا الأدب مع ذاته الكريمة كما قال ابراهيم عليه السلام « : وإذا مرضت فهو يشفين » وإما لأن الخير هو المقصود بالقصد الأول .

خلاصة المعنى

يجب أن يتنبه الإنسان إلى حقيقة هذه الحياة فسيجدها عند تدبرها فناء لا غنـاء فيه ولهواً باطلا وزخرفاً زائفاً وعند ذلك سيفر إلى الله ويترك التـكاثر والتفاخر والعجب ويفـكر فى عاقبته ويستعد لآخرته وعند ذلك ينجيه الله من النار والعذاب ويشمله بالرحمة والمغفرة والرضوان . جعلنا الله من السعداء الناجين .

قال الله تعالى :

سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

الاعراب والمفردات اللغوية

سابقوا فعل أمر وإلى مغفرة متعلق به ومن ربكم متعلق بمحذوف صفة لمغفرة وعرضها مبتدأ وكعرض متعلق بمحذوف خبر والجملة صفة لجنة وأعدت مبنى للمجهول ونائب الفاعل ضمير يعود إلى جنة والجملة إما حال من جنة وهى وإن كانت نكرة إلا أنها وصفت فصح مجىء الحال منها وذلك فضل مبتدأ وخبر ويؤتى فعل مضارع والفاعل يعود على الله ومفعوله الأول لضمير ومفعوله الثانى والجملة حال من لفظ الجلالة والعائد محذوف أى يؤتيه من يشاؤه .

سابقوا سارعوا إلى العمل الصالح أو إلى التوبة أو إلى الصف الأول فى الصلاة أو إلى التكبيرة الأولى مع الإمام والكل مراد يقال سبق الفرس فى الحلبة بسكون اللام جلى « والسابقات سبقاً » الملائكة تسبق الجن باستماع الوحى وهو سباق غايات حائز قصبات السبق . ويقال سابقة مسبقة واستبقا فى العدو وهو الجرى أى تسابقا فمعنى سابقوا فى الآية سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم فى المضمار . والمغفرة مأخوذة من الغفر بفتح الغين وسكون الفاء التغطية لأنها تستر الذنوب وتغطيها . وبابها ضرب والعرض مقابل الطول وهو دائماً أقل منه فإذا كان العرض بهذه السعة فما ظنك بطولها والعارض السحاب يعترض فى الأفق ومنه قوله تعالى : « هذا عارض ممطرنا » ويقال فلان خفيف العارضين يراد به خفة شعر صفحتى خديه وأعدت أى هيئت واستعد له تهيأ.

الأسرار البلاغية

فصل جملة سابقوا عما قبلها لأن الجملة السابقة خبرية وهى قوله : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » وسابقوا فعل أمر وهو من قبيل الإنشاء فوجب الفصل لاختلافهما خبراً وإنشاء فبينهما كمال الانقطاع بلا إيهام وهو من مواضع الفصل عند البلاغيين . وفى قوله : « إلى مغفرة » حذف أى إلى أسباب

مغفرة وهى العمل الصالح المشروط بالإيمان والتوبة والتنكير فى مغفرة للتعظيم الذاتى ووصفها بقوله « من ربكم » للتفخيم الإضافى بنسبتها إلى الله والتعبير بربكم دون سائر الأوصاف إشارة إلى أن هذا الأمر تربية لكم ورحمة بكم والتنكير فى جنة كذلك للتعظيم وأنها جنة لا يعلم قدرها ولا يدرك عظمها وال فى السماء للاستغراق أى كعرض كل السموات وكل الأرض والكلام كناية عن غاية السعة بما يحيط به فكر السامعين فهو كناية عن صفة والعرب كثيراً ما تصف الشىء بالعرض إذا أرادوا وصفه بالسعة ومنه قولهم أعرض فى المكارم إذا توسع فيها وأغرب أبو مسلم الأصفهانى فقال إن العرض هنا ليس المراد به ما قابل الطول بل هو من قولهم عرضت المتاع للبيع والمعنى أن ثمنها لو بيعت كثمن السموات والأرض والمراد بذلك عظم مقدارها وجلالة قدرها وأنه لا يساويها شىء وإن عظم فالعرض بمعنى ما يعرض من الثمن فى مقابلة المبيع وهذا بعيد ومخالف للمأثور عن السلف الصالح من أن المراد وصفها بالسعة .

وفى آية آل عمران « عرضها السموات والأرض » وهى على التشبيه أيضاً مع تقدير الكاف وهنا صرح بأداة التشبيه لأن سورة الحديد نزلت قبل سورة آل عمران سيما على القول بأنها

اشتملت على آيات مكية فجيء بآية الحديد على الأصل لأنها السابقة وجيء بآية آل عمران على المبالغة حملا لها على آية الحديد وأل في السماء والأرض كما عرفت للاستغراق فتساوى التعبير بالمفرد والجمع وعبر بالمغفرة ثم الجنة لأن التخلية مقدمة على التحلية لأن غفران الذنب يسبق الإنعام بالجنة .

وإنما قال فى سورة آل عمران « أعدت للمتقين » لأن الآية أرادت بالجنة هناك الفردوس الأعلى ولا يستحق هـذه المنزلة الرفيعة إلا من كان فى أعلى درجات التقوى بدليل وصفهم بقوله « الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » الآيات من سورة آل عمران .

وأما فى الحديد فالمراد بالجنة مطلق جنة ولذلك قال : « أعدت للذين آمنوا بالله ورسله » . ولو لاحظت ما قلناه من أن الحديد سابقة على آل عمران فيكون الترتيب طبيعياً لأن تحصيل الإيمان أولا ثم الإرتقاء فيه بالتقوى والإنفاق والخلق الكريم ثانياً .

والتعبير بالموصول فى قوله « للذين آمنوا » لتفخيم شأن الصلة وبيان سبب استحقاقهم للجنة والمغفرة وإنما جمع الرسل هنا وأفرده فى قوله : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا » فى أول السورة لأن الخطاب فى الأولى موجه للأمة المحمدية نخاطبها بما يجب

عليها أولا وهو الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم . ولما ذكر الله فى وسط السورة فضيلة الذين آمنوا بالله ورسله وبين أنهم هم الصديقون والشهداء قال هنا إن الجنة أعدت لجميع من آمن بالله ورسله جميعاً لا فرق بين أمة وأمة . ولنا جواب آخر أن نقول أن الآيتين يفيدان الإيمان بالرسل جميعاً لأن رسول مفرد وأضيف إلى الضمير والمفرد المضاف قد يراد به العموم فيشمل المثنى والجمع كما فى قوله : هذا خلق الله أى مخلوقه فيشمل كل مخلوق وقوله : « إن وعد الله حق » فيشمل كل وعد وأصرح من ذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء مخاطباً موسى وهرون « فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين » وبهذا تتساوى الآيتان . أو أنه يلزم من الإيمان بمحمد الإيمان بالجميع فلا يقبل إيمان مسلم بإيمانه بالله وجميع رسله . كما سبق فى قوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » .

والإشارة بذلك إلى الجنة التى أعدها الله للمؤمنين وما فيه من معنى البعد للتفخيم والإشارة إلى تميزها حق التميز وإضافة فضل إلى لفظ الجلالة لزيادة تفخيمه وأنه عطاء الكريم القادر على تنفيذ عطائه وفى التعبير بالمضارع فى يؤتيه للدلالة على شأن الله المستمر مع عباده الطائعين وتعليق الإيتاء بالمشيئة ليحمل

الطائع على المراقبة وملازمة الجناب الإلهى ويحمل العاصى على الإقبال والتوبة ليكون موضع المشيئة وتعريف الطرفين فى قوله : « والله ذوالفضل » . وجعل المسند لفظ الجلالة ووصف الفضل بالعظيم كل ذلك يفيد فخامة العطاء وتخصيصه بالله ، وفى هذا من التبشير والإغراء ما فيه ، والجملة تذييل لتقرير ما قبلها .

الأبحاث العامة

١ — قال العلماء أن مادة فاعل بفتح العين لا تكون غالباً إلا من جانبين كقولهم شارك وقاتل وسابق فما معنى سابق هنا على هذا الرأى الغالب ؟ قلت إن المؤمن لا يطيع ربه ولا يستطيع أن يستمر على عبادته ويستقيم فيها إلا إذا جاهد فى جبهات متعددة فهو يحارب هواه وشيطانه وزخارف الحياة وإغراءها حتى إذا تغلب عليها وبادر إلى الطاعة كأنه سبق هذه الأمور فسبقها وغالبته وغالبها فغلبها . أو نقول إن المؤمن قد طلب الله منه التنافس على الخير ومسابقة المؤمنين كما قال الله تعالى : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » وبهذا يمكن تحقق المفاعلة من جانبين .

ومن لم ينظر ذلك المنحى قال إن المسابقة هنا من جانب

واحد وقد جاءت على غير الغالب وقد يعبر بمادة فاعل لجانب واحد كقولهم سافر وعاقب اللص .

٢ — إختلف العلماء فى مكان الجنة والأكثرون على أنها فوق السموات السبع ، وفوقهـــا عرش الرحمن ، والقايل من العلماء يقول أنها خارجة عن هذا العالم حيث شاء الله تعـالى ، ومعنى كونها فى السماء على هـذا الرأى أنهـــا فى جهة العلو ، ولا مانع أن يخلق الله أمثال السموات والأرض فى جهة العلو بل له أن يخلق أضعاف ذلك وأكثر والله يقول : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

وهناك رأى ثالث يقول إنهـا فى السماء الآن وعند دخول الناس الجنة سيزيد الله فيها مايشاء حتّى تصبح أضعاف أضعاف السماء والأرض .

وقد أخرج ابن جرير الطبرى عن التنوخى رسول هرقل قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسـلم بكتاب هرقل وفيه انك كتبت تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار إذاً ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سبحان الله من أولج الليل فى النهـار ، وأولج النهار فى الليل قادر على ذلك) . والعلم الحقيقي فى ذلك عند الله .

٣ — والجمهور من أهل العلم على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن لقوله تعالى : « أعدت للمتقين » أى الجنة وقوله « أعدت للكافرين » أى النار ، ومعنى أعدت هيئت كما تقول أعددت لك نزلا حسناً ، وكذلك أخبر الله فى كتابه أن آدم قال الله له : « أسكن أنت وزوجك الجنة » وأل فى الجنة للعهد وهى جنة عدن .

وشذ كثيرون فقالوا إن الجنة والنار لا توجدان إلا بعد قيام الساعة وقالوا إن الفعل الماضى فى قوله : أعدت مؤول بالمستقبل وذلك كثير فى آيات القرآن كقوله تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » مع أن المراد بأمر الله القيامة وستأتى فى المستقبل .

وكقوله : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض » أى يأتى أمر الله وينفخ فى الصور فيصعق من فى الكون ، ولكن هذا تأويل ضعيف لأنه لا تدعو إليه ضرورة بخلاف الأمثلة التى أوردوها فالضرورة تدعو إلى تأويل الماضى بالمستقبل .

وكذلك قال بعض المعتزلة أن الجنة التى أمر آدم بسكناها ليست دار الخلد وإنما هى حديقة على ربوة عالية فلما أكل آدم

من الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منهـــا أمر بالهبوط من هذه الجنة الواقعة على الربوة العالية والنزول إلى واد منخفض. وأنت ترى أن كل هذه التأويلات بعيدة متكلفة لا تساعد عليها المحاورات التى وقعت بين آدم وربه ولا بين إبليس وربه .

على أن الرسول صلى الله عليه وسلم وكلامه الفيصل فى كل اختلاف لأن الله يقول : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

يحدثنا أنه صلى الله عليه وسلم رأى الجنة والنار وكاد يقطف من أزهار الجنة ، وتراجع القهقرى لرؤية النار .

ففى حديث ابن عباس رضى الله عنهما يقول النبى صلى الله عليه وسلم :(إنى رأيت الجنة فتناولت عنقوداً ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، وأريت النـــار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع) رواه البخارى .

وفى رواية أسماء يقول النبى صلى الله عليه وسلم :(دنت منى الجنة حتى لو اجترأت عليها لجئتكم بقطف من قطافها) .

وروى أحمد فى مسنده عن عبد الله بن بريدة قال : سمعت بريدة يقول :

أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بلالا ، فقال : يا بلال بم سبقتنى إلى الجنة ؟ مادخلت الجنة قط إلا وسمعت خشخشتك أمامى (أى صوت قدميك) فقـــال بلال ما أحدثت حدثاً إلا توضأت وصليت ركعتين فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : (بهذا أى بهذا العمل الصالح سبقتنى إلى الجنة) وهـذه مزية لبـــلال والمزية لا تقتضى الأفضلية قال الشيخ الساعاتى فى كتابه (الفتح الربانى) على مسند أحمد : ومشى بلال رضى الله عنه بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم كان عادة له فى اليقظة ليهيء له المكان ويستبرىء له الطريق فرآه فى المنام على هيئتـه فى اليقظة ، وكأنه أشار إلى بقاء بلال على ما كان عليه فى حياته واستمراره على قرب منزلته ، ولا يلزم من ذلك فضله على النبى صلى الله عليه وسلم لأنه — تقدم أو تأخر — فى مقام التابع وأنا أروى هنا حادثة أعجبتنى : تقدم بعض المتكبرين على عالم من العلماء المشهود لهم فى مجلس عام فقـال له بعض الحاضرين إن تقدمت فحاجب وإن تأخرت فواجب .

كل هذه النصوص تؤيد القول بوجود الجنة والنار الآن .

٤ — كذلك تثبت الآية أن الإيمان وحده كاف فى دخول الجنة . أما العمل فبه تفاوت الدرجات والآية تسمى هذا الجزاء

فضل الله أى عطاءه الذى لا يجب عليه ، والجمهور على أن العمل لا يوجب الجزاء وإنمـــا هو تابع لحـكم الله وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يارسـول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بمغفرة ورحمة) . وفى ذلك قال صاحب الجوهرة .

فإن يثبنا فبمحض الفضل   وان يعذب فبمحض العدل

قال الله تعالى :

مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ .

اللغة والاعراب

أصاب السهم إذا وصل إلى المرمى بالصواب وسمى وصول المصيبة إلى الإنسان إصابة إشارة إلى أنها تصوب إليه من الله ولا تلحقه مصادفة واتفاقاً . وعلى هذا لا يطلق أصاب إلا فى الشر ، وقال بعض اللغويين أنه من الصوب وهو المطر وعلى هذا يقال أصابه الخير ومنه قوله تعالى : « ولئن أصابكم فضل من الله » . وتذكير الفعل فى مثل هذا الموضع جائز كتأنيثه

لوجود الفاصل ، واستصوبه وصوبه بالتشديد قال له أصبت ، وصوب رأسه خفضه ، ومعنى نبرأها نخلقها يقال برأ الله الخلق برأ بسكون الراء أى خلقهم ، وبرأ المريض يبرأ برءاً بضم الباء أى شفى من مرضه ، واستبرأ الجارية لم يطأها حتى تحيض ومعنى لكيلا تأسوا لكيلا تحزنوا . وفى القاموس الآسى الحزن وأسا الجرح أسواً داواه وأسى بين المتنازعين أصلح والآسى الطبيب والأسوة القدوة وهو أسوان أى حزين ، وأسيت عليه كرضيت أسى حزنت . ومعنى مختال متكبر والخيلاء المخيلة بفتح الميم وكسر الخاء الكبر ، والفخور المتمدح بخصاله المعجب بها ، وتفاخروا فخر بعضهم على بعض وسمى المختال بذلك لأنه تخيل صفة تراءت له فى نفسه .

وما نافية ومن زائدة لمعنى هام وهو تأكيد النفى وشموله ومصيبة فاعل أصاب منع من ظهور الرفع حركة حرف الجر الزائد ، وفى الأرض متعلق بمحذوف إما مرفوع أو مجرور صفة لمصيبة على الموضع أو مراعاة للفظ ، أو ظرف لأصاب . وأن وما دخلت عليه فى قوله أن نبرأها فى تأويل مصدر مجرور بالإضافة واللام فى لكيلا للتعليل وتأسوا فعل مضارع منصوب بحذف النون والواو فاعل . وما إسم موصول مجرور

يعلى فى قوله تأسوا على ما فاتكم وجملة فاتكم صلة الموصول لا محل لهـــا من الإعراب وجملة لا تفرحوا معطوف على جملة لا تأسوا وتفرحوا منصوب أيضاً ، والجملة فى لكيلا تأسوا إلى آخره متعلق بمحذوف تقديره أخبرناكم .

الأسرار البلاغية

فصل جملة ما أصاب من مصيبة عن الجمل السابقة لأن الجملة فيها خبرية وجملة سابقوا فى الآية قبلهـا إنشائية فبينهما كمال الانقطاع بلا إيهام وهو من مواضع الفصل عند البلغاء . وأتى بمن بعد النفى لإفادة العموم وشموله لكل مصيبة ، ولتأكيد النفى وتقويته كما أشرنا .

والتنكير فى مصيبة للتعظيم أو للتعميم كأنه يقول ما أصابكم من مصيبة أىّ مصيبة ونائبة أى نائبة ، وأل فى الأرض للعهد الذهنى ، وإعادة النفى فى قوله ولا فى أنفسكم لبيان أن كلا منهما مستقل بالحكم وليس تابعاً لغيره ، والتعبير بفى كتاب إشارة إلى احتواء الكتاب على كل ما يحـــدث كاحتواء الظرف على المظروف ، وتنكير كتاب للتعظيم ، والمراد به اللوح المحفوظ أو علم الله الأزلى ، وعلى الأول فالاحتواء حقيق وعلى الرأى

الثانى فهو كناية عن شمول العلم ودقة الإحصاء وإحكام التقدير ، وفى الآية قصر موصوف على صفة قصر المصيبة على كونها في كتاب وأداة القصر ما وإلا أى النفى والاستثناء ، وتأكيد الكلام بأن فى قوله تعالى. « إن ذلك على الله يسير » وكذلك بالجملة الإسمية للرد على المنكرين الذين لا يعترفون بقدرة الله ، أو للاهتمام بالأمر فى ذاته . والتعبير باسم الإشارة لتمييزه أكمل تمييز بجعله فى سلك المشار إليه حساً ، وما فيه من معنى البعد لبيان عظم رتبته فى القدرة وتقديم الجار والمجرور على متعلقه فى قوله « على الله يسير » ليفيد الاختصاص كأنه يقول إن ذلك على الله القادر لا على غيره يسير هين فى حيز كن فيكون .

وإذا نظرت إلى الفعلية تأسوا وتفرحوا من الناحية البديعية وجدت بينهما طباقاً من نوع واحد لأن كليهما فعل ، وكذلك بين فاتكم وأتاكم على قراءة أتى من غير مد الهمزة والجملة الأخيرة تذييل لتقرير ما قبلها من ذم الحزن المؤدى إلى الكفران وذم الفرح المؤدى إلى الطغيان .

بحث دقيق فتأمل فيه

(س) هل هناك سر فى تغاير التعبيرين هنا وفى سورة آل عمران ففى سورة آل عمران اقتصر على الحزن فقال لكيلا تحزنوا

على ما فاتكم ولا ما أصابكم . أى لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة والنصر ولا ما أصابكم من الجروح والهزيمة .

وأما فى سورة الحديد هنا فذكر الحزن والفرح فقال : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » أى لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من زخرف الحياة ونعيمها ولا تفرحوا بما آتاكم من جاه الدنيا وأموالها .

(ج) أجاب بعض العلماء بأنه من باب الاكتفاء بإحداهما عن الأخرى فاكتفى بذكرها فى إحدى السورتين مفصلة وأجمل فى الأخرى وهذا الجواب ضعيف لأنه لو اكتفى فى إحداهما بالأخرى لكانت سورة الحديد أولى بالاكتفاء إذ هى متأخرة فى النزول عن آل عمران فسورة آل عمران تتحدث عن بدر وأحد فى حين أن سورة الحديد تتحدث وما بعد الفتح .

وأجاب الشيخ الألوسى بأنا نتوسع فى إطلاق المصيبة فيراد منها الحادث مطلقاً خيراً أو شراً ولذلك يأتى الحزن عن الفتح والفرح عقبها .

وأصرح من ذلك أن أقول أن آل عمران لم تذكر

سوى الهزيمة والغم المضاعف فى قوله تعالى : « فأثابكم غماً بغم » فناسب أن لا يذكر بعد هذا الحزن المضاعف إلا ما يناسبه من الحزن اقرأ آية آل عمران تتحقق من ذلك . قال تعالى : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحـــد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون » أما فى الحديد فقد ذكر قبل هذه الآية آيتان : الأولى تبين فضل الله يؤتيه من يشاء ، والثانية تبين بلاء فى الأرض والنفس فناسب ذكر الحزن والفرح معاً . ويشير إلى ذلك جعله لكيلا تأسوا بدء آية مستقلة فى الحديد بخلافاً فى آل عمران .

الأبحاث العامة

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنهم لما أمروا بالإنفاق والجهاد فى سبيل الله فى قوله : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل » هون الله عليهم ذلك وبين أن الدنيا متاع الغرور وأن ما يصيبهم فى الجهاد من الأمراض والقتل وما يصيبهم فى المال من النقص والفقر إنما ذلك مقدر أزلا فلا يدفعه بخل ولا جبن .

ويمكننا بعد أن تتبعنا معظم آيات السورة أن نقول : إن

الهدف الذى تعنى ببيانه الآيات فى هذه السورة الإيمان القوى والإنفاق فى سبيل الله وكل ما ذكر فإنما هو تمهيد لهذا الهدف أو نتيجة له .

والمراد بالمصيبة التى تقع فى الأرض القحط والجدب وقلة الثمار والنبات وآفات الزروع والزلزلة .

والمراد بما يقع فى الأنفس الأوصاب والأسقام وإقامة الحدود وضيق المعاش ونحو ذلك .

فإن قيل : لم لم يذكر المصيبة فى السموات قلنا لعدم تعلق غرض بالحديث عنها مع قلة المصائب فى أهلها بل لا يكاد يصيبهم سوى مصيبة الموت . وكذلك إذا نظرنا إلى السباق والسياق نجد أن الكلام فى شرح حال الحيـــاة الدنيا فالأوفق هنا ذكر ما يتصل بها من المصائب الدنيوية فى الأرض والنفس وإنما قيدت المصيبة بكونها فى الأرض والنفس وحكم عليها فقط بأنها فى كتاب دون سواها لأن الحوادث المطلقة كلها ليست مكتوبة فى اللوح لأنها غير متناهية واللوح متناه وهو لا يكون ظرفاً لغير المتناهى وقد جاء فى الأثر : جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة . أما إن أردنا بالكتاب علم الله تعالى فقد شمل علم مصائب الدنيا

والآخرة فى الأرض والسموات وسائر الكون لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء وتخليص ما ذكر لما سبق بيانه .

وضمير نبرأها المنصوب يعود على كل ما تقدم من الأنفس والأرض والمصيبة .

وفى الآية إشارة إلى أن الله هو المختص بالخلق سواء كان خيراً أم شراً غير أن الأدب يقتضى من المسلم أن ينسب الخير إلى الله وينسب الشر إلى نفسه كما قال تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » مع ملاحظة قوله تعالى : « قل كل من عند الله » .

ولذلك تأدب الخليل ابراهيم عليه السلام فى قـــوله : « وإذا مرضت فهو يشفين » وتشير الآية التى معنا إلى هذا فى قوله : فاتـكم وآتاكم بالمد .

وقد جهل قوم فتركوا الدواء لأمراضهم ولم يستعملوه ثقة بربهم وتوكلا عليه وقالوا قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا لأن ابن عباس يقول لما خلق الله القلم قال له اكتب فكتب ما هو كائن الى يوم القيامة . وللآية التي معنا . وعن ابن مسعود أن نبى الله

صلى الله عليه وسلم قال : (لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه) رواه القرطبي . ولكن أمر الناس باتخاذ الأسباب فقط . أما ما يترتب عليها فيجب أن يترك أمره إلى الله تعالى .

قال صاحب الكشاف فإن قلت لا أحد يملك نفسه عند ضر ينزل به ولا عند نفع يناله أن لا يحزن ولا يفرح قلت المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لله ورجاء ثواب الصابرين . وكذلك المراد بالفرح المذموم المطغى الملهى عن الشكر فأما الحزن الذى لا يكاد الإنسان يخلو منه مع التسليم لقضاء الله فلا ذم فيه وكذلك الفرح والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر وأداء حقها فلا بأس بذلك ، ويؤيد ذلك ما أخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس قال ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبراً ومن أصابه خير جعله شكراً .

وفى الآية دليل على أن الله يعلم الأشياء قبل وقوعها وهو مذهب أهل السنة والجماعة وقد شذ قوم منهم هشام بن الحكم وبعض القدرية حيث قالوا إن الله لا يعلم الحوادث قبل وقوعها ويقولون إن الأمر أنف بضمتين أي مستأنف في علم الله وهذا

كفر لأنه يؤدى إلى النقص فى حق الله تعـــالى ونحن نقدسه ونسبحه عن ذلك . والفخر والاختيال بمعـــنى وقد فرق بعض اللغويين بينهما فقال المختال الذى ينظر إلى نفسه بعين العجب والفخور الذى ينظر إلى الناس بعين الاحتقار وكلاهما مذموم . قال جعفر الصادق (يا ابن آدم مالك تأسى على مفقود لا يرده عليك الفوت ، أو تفرح بموجود لا يتركه فى يديك الموت) وقد أعجبنى تشبيه الفخور بالشاة المصراه تشد أخلافها ليجتمع فيهـا اللبن فيفر المشترى بهـا فكذلك الفخور يدعى ما ليس فيه فإذا امتحنته وجدته خاوى الوفاض .

واعلم أن إثبات المحبة أو نفيهـا عن الله لا يراد به حقيقته من الميل النفسى أو عدمه فإن ذلك محال على الله لأنه انفعال نفسى وإنمـــا المراد به لازمة فلازم المحبة الإثابة ولازم عدم المحبة العقوبة . والمراد بلا يحب كل أى لا يحب كل فرد من أفراد المتكبرين الفخورين لا أنه يحب البعض ويكره البعض كما هو مذهب الشيخ عبد القاهر الجرجانى حيث قال إذا تأملنا وجدنا ذكر كل بعد النفى لا يصلح إلا حيث يراد أن بعضاً كان وبعضاً لم يكن ويسميه البلاغيون بسلب العموم لأن القاعدة التى ذكرت أغلبية لا كلية بدليل الآية .

خلاصة المعنى

ما يحدث للإنسان أو لغيره من حدث إلا كان مقدراً عند الله في علمه الأزلى يحيط به قبل إحداثه . وما دام الأمر كذلك فينبغى للمؤمن أن لا يحزن على ما فات ولا يفرح بما هو آت وبذلك تنطلق يده بالنفقة فى وجوه الخير ، وتقدم نفسه على مواطن الجهاد غير هياب ولا وجل . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها) والروع بضم الراء النفس أما الروع بفتحها فهو الفزع وليس مراداً هنا . قال القاسمى فى تفسير الآية أعلمناكم بأنا قد فرغنا من التقدير فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير فلا الحزن يدفعه ولا السرور يجلبه ويجمعه وقال القاشانى لتعلموا علماً يقينياً أن ليس لكسبكم وحفظكم وحذركم مدخل وتأثير ولا لعجزكم وإهمالكم وقلة حيلتكم وعدم احترازكم فيما فاتكم مدخل فلا تحزنوا على فوات خير أو نزول شر ولا تفرحوا بوصول خير وزوال شر فرحا يؤدى إلى البطر ونسيان النعمة إذ الكل مقدر . اهـ .

قال الله تعالى :

ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ .

الاعراب والمفردات اللغوية

الذين اسم موصول فى محل جر نعت المختال فى الآية السابقة فهى مرتبطة بهـا ارتباط النعت بالمنعوت وقيل هو فى محل رفع بالابتـداء أى الذين يبخلون فالله غنى عنهم ، أو فى محل نصب بتقدير فعل وهو أذم أو بدل كل من كل مختال وعلى كل حال فلها ارتباط وثيق بالهدف العام الذى ذكرته لك سابقاً وهو الإيمان بالله ورسله والإنفاق فى سبيل الله . وجملة يبخلون صلة للموصول لا محل لهـا من الإعراب . ومن اسم شرط جازم ويتول فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة واقترن جواب الشرط بالفاء لأنه جملة اسمية وهو ضمير فصل بين اسم أن وخبرها .

والبخل ضد الكرم وبخل كفرح وكرم بخلا بالضم والتحريك والتولي الإعراض وولي تولية أدبر وولى عنه وتولى أعرض

أو نأى والحمد الشكر والرضا وحمد فلاناً رضى فعله والحميد صفة من صفات الله تعالى وحمد من باب سمع .

الأسرار البلاغية

التعبير باسم الموصول لذم الصلة وبيان سبب الحكم والتعبير بالمضارع فى يبخلون ويأمرون للإشارة إلى أن دينهم وعاداتهم المستمرة البخل فى أنفسهم وأمر غيرهم بذلك .

والتعبير عن المفعول بالناس إشارة إلى عموم فسادهم وأنه شمل الناس جميعاً ولم يختص بطائفة معينة ولم ينحصر فى دائرة ضيقة وأل فى البخل للعهد وهو البخل المتناهى ادعاء .

والتعبير بمن الشرطية لإفادة العموم وجعل فعل الشرط مضارعاً لإفادة استمرارهم فى التولى وثبوت الحكم لهم على سبيل التجدد المستمر ما دام الإعراض منهم مستمراً وتأكيد جواب الشرط بأن وضمير الفصل واسمية الجملة للاهتمام بالحكم ولأنه نزل البخلاء مع علمهم بغنى الله عنهم منزلة المنكرين .

وأتى بلفظ الجلالة لتربية المهابة وكذا إدخال الروعة وأتى بضمير الفصل لإفادة القصر أى هو لا غيره الغنى وتعريف الطرفين يفيد

التخصيص كذلك وأل فى الغنى والحميد للعهد الكمالى أى هو البالغ فى الغنى واستحقاق الحمد وإسداء النعم مبلغ الكمال فيهما . وفى الجملة تهديد بالغ لمن تولى .

الأبحاث العامة

١ — نزلت الآية فى اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم التى فى كتبهم لئلا يؤمن به الناس فتذهب منفعتهم التى كانوا يحصلون عليها باسم الدين . وقيل إنه البخل بالعلم وقيل البخل بأداء حق الله تعالى من الزكاة . وقيل البخل بما فى أيديهم مطلقاً .

وعلى الرأى الأول يأمرون الناس بالبخل أى يأمرونهم بكتمان صفة محمد صلى الله عليه وسلم .

وعلى التفسير الثانى يأمرون الناس بأن لا يعلموا أحداً حتى يفشو الجهل فتبقى لهم دولتهم .

وعلى الآراء الباقية يكون المعنى يحثون الناس على إمساك أموالهم ، وأبخل الناس من بخل بمال غيره . وهذا الأمر بالبخل قد يكون حقيقة وقد يكون مجازاً عن القدوة السيئة فكأنهم آمرون لغيرهم باتباعهم فى بخلهم .

وقد فرق بعض الأدباء بين البخل والسخاء بفرقين أحدهما أن البخيل هو الذى يتلذذ بالإمساك ، والسخى هو الذى يلتذ بالإعطاء .

وثانيهما أن الذى يعطى عند السؤال هو البخيل أما السخى فهو الذى يعطى من غير سؤال .

٢ — أشار الشيخ الألوسى فى تفسيره إلى مناسبة بين الآية والتى قبلها بأن المختال المعجب بماله كثيراً ما يضن به عن الإنفاق ، فلما ذم الله كل مختال فخور أعقبه ببيان صفة لازمة له غالباً وهى البخل والإمساك بماله وحض الناس على ذلك ليكونوا مثله فلا يشعر بحرج .

٣ — جعل الله الزكاة برهاناً ساطعاً على صدق دعوى الإيمان بخلاف سائر ما فرض الله فقد يصلى المسلم ولا إيمان له كما يفعل المراءون والمنافقون وقد يصوم تمشياً مع العادة والبيئة ، وقد يحج طمعاً فى الألقاب والشهرة .

أما من حرص على إخراج الزكاة ، وأنفق من ماله فى سبيل الخير كان ذلك دليلا قوياً على صدق إيمانه لأن المال شقيق الروح

وغديل البنين ، فلا يسهل على شخص إخراج حقوق الله والناس من ماله إلا إذا كان مؤمناً حقاً : —

٤ — قد ورد فى فضـــل الإنفـاق وذم البخل نصوص كثيرة ، منها : —

ما روى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفـاف وابدأ بمن تعـول) . رواه مسلم .

وأنت تحس فى هـذا الحديث التعاون الصادق بين المسلمين الذى يجعل الإسـلام دين التـكافل الاجتماعى الذى لا يرقى إليه أى نظام من نظم العـالم اليوم والله يقول : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمـات يوم القيـامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلـكم حملهم على أن سفـكوا دماءهم واستحلوا محارمهم). رواه مسلم .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم اعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفاً) . رواه البخارى .

خلاصة المعنى

لا يحب الله الذين يبخلون بأموالهم فيفرحون الفرح المطغى إذا رزقوا مالا وحظاً من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم وعظمته فى عيونهم وقلوبهم يزوونه عن عيونهم فى الخزائن ويبخلون به ولا يكفيهم أنهم بخلوا به حتى يحملوا الناس على البخل ، ويرغبوهم فى الإمساك ، ويزينوه لهم .

وذلك كله نتيجة فرحهم به وبطرهم عند إصابته ، ومن يعرض عن أوامر الله ونواهيه ويبخل بماله ولا ينفق منه فى سبيل الله ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتى فإن الله غنى عنه وعن ماله وسيعذبه على مقدار ما قدمت يداه . وحسبه قول الله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وحسبه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزميه يعنى شدقيه ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قول الله تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير » . روى هذا الحديث أبو هريرة وأخرجه البخارى فى كتاب الزكاة .

قال الله تعالى :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ

الاعراب والمفردات اللغوية

اللام فى لقد تنبىء عن وجود قسم كأنه قال والله لقد وقد للتحقيق والباء للتعدية فى قوله بالبينات ومعناها المصاحبة والكتاب مفعول به ومعهم ظرف متعلق بأنزل أو حال من الكتاب والميزان معطوف على الكتاب وأصل ميزان موازن قلبت الواو ياء لكسر ماقبلها وهو إسم آله على وزن مفعال واللام فى ليقوم لام التعليل والفعل منصوب بعدها وفيه بأس

خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة حال ومن اسم موصول مفعول يعلم فى محل نصب وجملة ينصره صلة لا محل لها من الإعراب ورسله معطوف على مفعول ينصر وبالغيب متعلق بينصر .

والبينات جمع بينة وهى الآيات الواضحة يقال بأن الأمر وتبين واستبان بمعنى اتضح وأبنته واستبنته أوضحته فالمادة تدور على الإيضاح ومنه البيان وهو الإفصاح عن المراد . والميزان ، الآلة المعروفة بين الناس وإنزاله بإنزال أسبابه وأمر الناس باتخاذه مع تعليم كيفيته . والميزان يطلق على العدل وعلى المقدار واستقام ميزان النهار انتصف . والقسط بالكسر العدل وقسط جار وأما أقسط فهى بمعنى عدل والله يحب المقسطين أى العادلين وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً أى الجائرون والحديد المعدن المعروف ويقال رجل حديدأى شديد فى اللسن أو الفهم أو الغضب .

وحد السكين وأحدها وحددها مسحها بحجر أو مبرد . وحدت تحد وأحدت تركت الزينة للوفاة . والبأس الشدة فى الحرب وبؤس مثل كرم بأساً فهو بئيس أى شجاع وبئس كسمع إشتدت حاجته والبأساء الداهية .

الأسرار البلاغية

التأكيد بالقسم واللام الموطئة وقد لما أن الرسالات موضع تكذيب وإنكار وإسناد الإرسال إلى نور العظمة وإضافة رسل إلى ضمير التعظيم يفيد من الفخامة الذاتية والإضافية مالا يدرك قدره والمراد بالبينات المعجزات الواضحة الدالة على صدق الرسل وبالشرائع الظاهرة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما من نبي إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ .

والتعبير بالإنزال وتقديم الظرف على المفعول الصريح للتشويق المؤخر والاهتمام بالمقدم وبيان أن ذلك كان بإنزال الله وكان مقارناً لهم ومعنى إنزال الكتاب إرسال الملك به كالتوراة أو بما يشتمل عليه كوحى القرآن حيث نزلت التوراة ألواحاً ونزل القرآن وحياً على لسان جبريل وأل فى الكتاب للجنس فيشمل سائر الكتب السماوية وأل فى الميزان للعهد والمراد به الميزان المعروف بيننا بدليل قوله : « ليقوم الناس بالقسط » أى بالعدل فى معاملاتهم ونقدر للميزان فعلا يناسبه فالمعنى أنزلنا الكتاب ووضعنا الميزان فهو من باب — علفتها تبناً وماء

بارداً — أى وسقيتها أو نجعله من عموم المجـــاز فنذكر فعلا يناسب الأمرين فيقال شرعنا الـكتاب والميزان والتعليل فى قوله : « ليقوم الناس بالقسط » للأمرين السابقين معاً فإنزال الـكتاب باب من أبواب العدل بين الناس بإتبـــاع أحـكامه وتنفيذ شرائعه معاشاً ومعاداً كما أن الميزان باب من العدل فى المعاملات .

وفى إنزال الحديد مجاز مرسل عن إنزال ما هو أصله ومنشأه وهو تقدير الله فى اللوح المحفوظ ، أو المجاز فى الإسناد وهو أن الإنزال الحقيقى ليس للحديد فى ذاته وإنما هو لوحى يتعلق به وهذا كله بعيد والأولى أن يقال إن أنزلنا حقيقة لأن الأرض كلهـا كانت قطعة من السماء فانفصلت عنهـا ونزلت بمـا فيها من الحديد وغيره وذلك مصـداق قوله تعـالى : « أو لم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ». غاية ما هنالك أنه خص الحديد بالإنزال لـكثرة منافعه وتعدد أماكنه .

وأما ما ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان والـكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة فهذا كـذب على ابن عباس لم يثبت عنه بسند صحيح ذكر ذلك القاسمى فى تفسيره .

وروى الثعلبي عن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض : الحديد والنار والماء والملح . وهو أيضاً حديث لم يثبت .

وبعض العلماء أول أنزلنا الحديد بمعنى خلقنا وأنشأنا كما فى قوله تعالى : وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج وهو تفسير بلازم الشيء فإن كل مخلوق منزل باعتبار ثبوته فى اللوح المحفوظ وتقديره موجوداً حيث ثبت فيه . فرجع هذا الرأى فى آخر أمره إلى أحد الآراء السابقة .

وفسره آخرون بمعنا هيأنا لكم وأنعمنا به عليكم من قولك هذا نزل الضيف أى مكانه الذى هيء له . وقالت طائفة إن آدم عليه السلام نزل إلى الأرض ومعه جميع الآلات ومنها الحديد وذلك فى رأى مكابرة ودعوى لا دليل عليها .

قال ابن تيمية إن القرآن عربى نزل بلغة العرب فلا يجوز تأويل لفظ النزول والإنزال على غير معناهما الحقيق ما دام ممكناً وفى رأيه أن الحديد خلق كسائر المعادن فى الجبال فإذا أراد الله الانتفاع بمعدن من هذه المعادن أنزله من مكانه فى الجبل بحيث يستطيعه بنو آدم .

وتقديم الجار والمجرور فى قوله : فيه بأس شديد للتخصيص الادعائى أى فيه لا فى غيره بأس أى عذاب شديد من القتل لأن منه أنواع السلاح ومن منافعه أنه جنة ووقاية فى الحروب ويتخذ منه آلات للحرث والزرع فى وقت السلام .

وأل فى الناس للجنس وذلك لأن الحديد نافع لكل طائفة واللام فى قوله ليعلم الله للتعليل أى ليتبين ظاهراً من يتخذه للجهاد ومن يتخذه للبغى ، وليظهر للعالم من يتخذه للاعتداء على الأمم ومن يتخذه لنصرة دين الله وإعلاء كلمة الله وختم الآية بجملة تذليلية تأكيداً لما تضمنته من القدرة فقال : « إن الله قوى عزيز » أى قوى فى بطشه منيع غالب على أمره وأكدها بأن وإسمية الجملة ولفظ الجلالة للاهتمام بها .

الأبحاث

١ — الإنسان بفطرته يميل إلى التدين والخضوع لقوة خارجة عن إرادته ، وقد عبد الناس قديماً أنواعاً من المعبودات الباطلة لاعتقادهم أن فيها سراً ، فبعضهم عبد الشمس ، وبعضهم عبد الكواكب ، وبعضهم عبد الملائكة ، وقليل منهم من اهتدى بعقله إلى الله تعالى الواحد . لذلك كان من الحكمة الإلهية أن يرسل

رسلا وأن يؤيدهم بالمعجزات وأن ينظم لهم دينهم ودنياهم بشرائع كل ذلك رحمة من الله بعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور وينقذهم من الشرك إلى الوحـــدانية . غير أن حكمته اقتضت أن يكون لكل رسول معجزة تلائم عصره ، وتوافق مستواه فبعض المعجزات حسى كإبراء الأكمه والأبرص لعيسى عليه السلام وكالعصا تنقلب حية تسعى ، وبعضها معنوى كالقرآن المعجز للبشر فى فصاحته وبلاغته وأسلوبه وأخبـاره بالأمور الغيبية المـاضية والحالية والمستقبلة التى صدقها الواقع . وقد جمع الله لمحمد صلى الله عليه وسلم بين المعجزات الحسية والمعنوية فهو الذى انشق القمر له بعد دعوى النبوة وتحدى المشركين ، وهو الذى حن الجذع اليابس لفراقه وصار يسمع لأنينه صوت حتى نزل والتزمه إلى صدره الشريف ، وهو الذى فار الماء من بين أصابعه الكريمة حتى سقى الجيش كله وغير ذلك من المعجزات التى ثبتت فى كتب السنة الصحيحة . إلا أن العلماء أجمعوا على أن أكبر معجز هو القرآن ، وهو الذى يناسب العصر المحمـــدى لأن العرب قد ارتفع مستواهم حتى أصبح الحكم للعقل والحكمة أكثر مما هو للأمور المـادية التى تدل على أن الناس أقرب إلى البلادة فلا قدرة لهم على الغوص فى الأمور المعنوية .

والكتب السماوية المشهورة هى التوراة لموسى والزبور لداود ، والإنجيل لعيسى ، والقرآن لمحمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى السلام وهناك صحف مثل صحف شيث وصحف ابراهيم ، وليس معنى هذا أن الرسل الباقين ليس لهم كتب ولا صحف وإنما لابد لكل رسول من شريعة يعمل بها ويبلغها قومه .

٢ — فى الآية جمل متعاطفة ولكن المناسبة بينها تحتاج إلى إيضاح ؛ فقال بعض العلماء فى وجه المناسبة : إن المقصود ذكر ما يتم به انتظام العالم فى الدنيا حتى ينالوا السعادة فى الأخرى ، والناس قسمان :

المهتدون وأولئك ينتظم حالهم فى الدارين بالكتب والشرائع المطهرة ، وكذلك من أطاعهم وقلدهم من العامة ينتظم حالهم بإجراء قوانين الشرع العادلة بينهم . والقسم الثانى الضالون المتمردون وهؤلاء يقام عليهم الحدود فيضربون تارة بالسياط وتارة بالسيوف وهى من الحديد . وإلى الأولين أشار الله بقوله تعالى : « وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » فجمع المهتدين وأتباعهم فى جملة واحدة ، وأشار إلى الآخرين

المتمردين بقوله : « وأنزلنا الحديد » فكأنه قال أنزلنا ما يهتدى به الخواص وأتباعهم وما ينتظم به حال مخالفيهم .

قال الإمام العتبى : كان يختلج فى صدرى أن فى الجمع بين الكتاب والميزان والحديد تنافراً وسألت عنه فلم أحصل على ما يزيح العلة وينقع الغلة حتى أعملت التفكير فوجدت الكتاب قانون الشريعة ودستور الأحكام الدينية يتضمن جميع الأحكام والحدود وقد حرم فيه الاعتداء والظلم والبغى وأمر بالتناصف والعدالة ولم يكن يتم كل ذلك إلا بالميزان ، والذى يصون كل ذلك إنما هو السيف الذى يصنع غالباً من الحديد ، فجمع بالقول الوجيز معانى كثيرة الشعوب متداينة الجنوب محكمة المطالع منوعة المبادىء والمقاطع اهـ .

قال القاسمى فى تفسيره حاكياً عن غيره : البينات فى الآية المعارف والحكم ، والكتاب الكتابة والخط والميزان العدل لأنه آلته والحديد السيف لأن مادته وهى الأمور التى يتم بها الكمال النوعى ، وينضبط بها النظام الكلى المؤدى إلى صلاح المعاش والمعاد إذ الأصل المعتبر والمبدأ الأول هو العلم والحكمة والأصل الثانى المعول عليه فى العمل هو العدل ثم لا ينضبط النظام ،

ولا يتمشى صلاح الكل إلا بالسيف والقلم اللذين يتم بهما أمر السياسة لأن الإنسان مدنى بالطبع محتاج إلى التعامل والتعاون لا يمكنه العيش إلا بالاجتماع . والنفس إما خيرة منقادة للشرع ، وإما شريرة آبيـــة للشرع فالأولى يكفيها الشرائع والكتب والحكم ، والثانية لابد لها من القهر وسياسة الملك وآلة ذلك الحديد اهـ .

خلاصة المعنى

أرسل الله رسله وأيدهم بمعجزات باهرة ، وأنزل على كل شريعة لينتظم أمر الناس وأنزل الكتب لتكون قوانين عامة تسعد الناس فى دنياهم وأخراهم كما وضع فى الأرض ما يصلحها من الماء والهواء والتراب والنار ورمز إلى كل ذلك بالحديد والميزان فالحديد رمز للمنافع الشخصية والثانى رمز للعلاقات الاجتماعية والحكمة فى هذا كله أن يتعامل الناس بالعدل فيما بينهم وأن يستخدموا ذلك فى نصرة الله ونصرة رســـله وإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه فهذا هو المقصود الأول ، ولو فكر الناس فى كل شرائع الله وعباداته لما وجدوا فائدتها راجعة إلى ذاته الكريمة فهو الغنى القوى العزيز وإنما فائدة الشرائع ترجع إلى العباد أنفسهم لتهذيب نفوسهم وتنظيم علاقاتهم وإحسان معاملاتهم

أنظر إلى الصلاة مثلا تجدها تهذيباً للنفوس وإبعادا لها عن الفاحشة ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً وانظر إلى الزكاة تجـــدها تزكية للنفس وصلاحاً للمجتمع وتقريباً بين الطبقات وإيجاداً للمحبة والتعاون بين الناس ودفعاً للضغينة بين الغنى والفقير وهى بعد هذا كله أعظم تطبيق للاشتراكية الإسلامية التى ينشدها كثيرون .

أما ذات الله تعالى فهى منزهة عن الانتفاع بطاعة الناس وعن التضرر بمعاصيهم وهاك أحاديث لهـا صلة بالآية ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فى حديث له عن ربه ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد مازاد هـــذا فى ملكى شيئاً ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص هذا من ملكى شيئاً . وقال صلى الله عليه وسلم : ما من نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً .

قال الله تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ

الاعراب واللغة

مضى إعراب ولقد أرسلنا والنبوة مفعول جعل ومهتد مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة للثقل كما فى قاض وكثير مبتدأ ومنهم متعلق بمحذوف صفة وفاسقون خبر .

ونوح إسم رسول بل قال كثيرون إنه أول رسول لحديث ورد فى الشفاعة بذلك وإبراهيم رسول وقد جعله الله أبا العرب والمسلمين فقال ملة أبيكم إبراهيم ثم تناسل كل منهما وكان من ذريتهما الأنبياء والمرسلون ومنهم الصالحون والفاسقون وقد عرفت سر التأكيد فيما سبق وسر تقديم المتعلق كذلك ولا حاجة إلى التكرار .

الأبحاث

ومناسبة الآية لما قبلها أنه نوع تفصيل لما أجمل فى الآية السابقة . لقد أرسلنا رسلنا وتكرير القسم والتأكيدات لإظهار مزيد الاعتناء بأمر الرسل والمرسل إليهم والكتاب المقصود به ما سبق من الجنس الشامل لجميع الكتب السماوية وقال ابن عباس الكتاب الخط بالقلم ولم يكن ذلك معروفاً قبل نوح والضمير فى منهم إلى الذرية أو إلى المرسل إليهم وهم الأمم المدلول عليهم بذكر الإرسال والمرسلين . فإن قيل إن وجه المقابلة أن يقال فمنهم مهتد ومنهم ضال فلم اختار التعبير الكريم قلنا إن ما عليه النظم الكريم أبلغ فى الذم لأن الخروج عن الطريق المستقيم بعد التمكن منه ومعرفته أبلغ من الضلال عنه لأنه لايقال فسق الرجل إلا اذا بلغته الدعوة وعلم الشرع ثم خرج عنه وتجاوزه فى حين أنه يقال للرجل الذى لم يبلغه أمر من الله أنه ضال لأن الضلال قد يطلق على الحيرة وعدم الاهتداء ومنه قوله : « ووجدك ضالا فهدى » أى حائراً فهداك إلى الحق . ولإيذانه بغلبة أهل الضلال على غيرهم . وقد وضح المعنى فلا داعى للتطويل .

قال الله تعالى :

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ .

المفردات اللغوية والاعراب

قفينا أتبعنا والقفا وراء العنق وقفوته تبعته وقفيته زيداً وبه أتبعته إياه والإنجيـــل أعجمى وقد رويت بفتح الهمزة وكسرها ويؤنث وهو كتاب عيسى الذى أنزله الله عليه . ومنهم من جعله

عربياً فقال وزنه أفعيل من النجل وهو الأصل لأنه أصل لعلوم وحكم ويقال لعن الله ناجليه يعنى والديه إذ كانا أصله وقيل هو من نجلت الشيء إذا استخرجته ومنه سمى الولد نجلا لخروجه من بطن أمه . ويحتمل أن يكون مما عربته العرب من الأسماء الأعجمية .

وقال بعض اللغويين : إن الإنجيل يطلق على كل كتاب مكتوب وافر السطور ولهـــذا قد يسمى القرآن إنجيلا كما ورد فى قصة مناجاة موسى عليه السلام قال :

يا رب أرى فى الألواح أقواماً أناجيلهم فى صدورهم فاجعلهم أمتى فقال الله تعـالى : تلك أمة أحمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما أراد بالأناجيل القرآن وهو مفعول ثانى لآتينـا والرأفة اللين والرحمة الشفقة وقيل : هما واحد وفرق بعضهم بينهما فقـال : الرأفة أن تدفع الشر والرحمة أن تجلب الخير وقيل : الرأفة أن تخفف عن الـكل بفتح الـكاف والرحمة أن تحمل عنه الثقل كله ، ورأفة ورحمة مفعول جعل الأول ومعطوف عليه . والرهبانية . المبالغة فى العبـادة بالرياضة والانقطاع عن النـاس مأخوذة من الرهب وهو الخوف كخشيان من خشى وقرىء رهبانية بضم الراء منسوبة إلى الرهبان بالضم وهو يكون كما قال الراغب واحداً فى وجمعا فالنسبة إليه باعتبـار كونه واحـداً وضم الراء فى المنسوب

من تغييرات النسب كما قالوا : دهرى بضم الدال نسبة إلى الدهر أو أنه أعطى الجمع منه حكم المفرد لاختصاصه بطائفة كما فى أنصارى نسبة إلى الأنصـار .

ومن أدلة وقوعه مفرداً قول الشاعر :

لو أبصرت رهبان دير فى الجبل　　لانحدر الرهبان يسعى ويصـل

ورهبانية منصوبة على الاشتغال .

الأسرار البلاغية

التعبير بثم للمتراخى الزمنى إلا أنه ليس إنقطاعاً لمدة طويلة بل لفترة وجيزة بدليل قوله على آثارهم لأن الآثار تحتـاج إلى مدد طويلة حتى تصبح دارسة لا أثر لها .

وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة تفخيم للإرسال ورسل جمع كثرة لرسول إشارة إلى تعدد الرسل وتواليهم حتى جاء عيسى ابن مريم وقد صرح بهذا فى قوله تعـالى : « ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه » .

والباء فى قولة : برسلنا . للمصاحبة إشارة إلى أن الله يرعى رسله ويحفظهم ويؤيدهم .

فائدة : ذكر الله النساء فى القرآن ولـكن لم يتعرض لذكر

امرأة باسمها سوى مريم على ما أذكر . والسر فى ذلك أن العرب كانوا يتحرجون من ذكر أسماء النساء غيرة عليهن وإكراماً لهن فقال تعالى : « وراودته التى هى فى بيتها عن نفسه » إذ قالت إمرأة عمران : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً » . « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون » . إلا أنه لما كان عيسى لا يعرف إلا بأمه أضطر إلى ذكرها باسمها والتعبير بالموصول فى قوله : « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه » . لتفخيم شأن الصلة وبيان أنها العلة فيما أنعم الله عليهم به والتنكير فى رأفة ورحمة ورهبانية التعظيم والمبالغة والتعبير بما وإلا فى قوله : « ما كتبناها عليهم إلا إبتغاء رضوان الله » للحصر والإستثناء متصل والمعنى ما فرضنا الرهبانية عليهم أصلا لشيء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقوا بها ثوابه . ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً وإلا بمعنى لكن ، والمعنى على هذا ما فرضاها عليهم ولكن ابتدعوها وألزموا أنفسهم بها إبتغاء رضوان الله « فما رعوها حق رعايتها » فما قاموا بما التزموه منها حق القيام من التزهد والتخلى للعبادة بل اتخذوها آلة للسؤدد والرئاسة وإخضاع الشعب لأهوائهم . قال الإمام ابن كثير ذمهم من وجهين الابتداع فى دين الله ما لم يأمر به الله وفى عدم

قيامهم بما ألزموا به أنفسهم مما زعموا أنه قربة . والتعبير باسم الموصول فى قوله : « فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم » . للإشادة بالإيمان وبيان أنه سبب للخير والأجر ، وفى قوله : وكثير منهم فاسقون تشنيع عليهم بأن كثرة منهم خارجة عن حدود الشرع متجاوزة لأوامر الله ، وفيه من التهديد ما فيه .

الأبحاث

قال القاسمى فى تفسيره : رأيت فى كثير من مؤلفات علماء المسيحيين المتأخرين ذم بدعة الرهبنة وبيان ما كان لها من تأثير فى النفوس والأخلاق فقد قال صاحب كتاب (ريحانة النفوس) إن الرهبنة قد نشأت من التوهم بأن الإنفراد عن معاشرة الناس واستعمال الرياضات والتأملات هى ذات شأن عظيم ، ولكن لا يوجد سند لهذا الوهم فى الكتب المقدسة لأن سيرة المسيح وسيرة رسله على خلاف ذلك فإنهم لم يعتزلوا الناس بل كانوا مختلطين بهم ينصحونهم ، ونحن نقول بكل جراءة : أنه لا يوجد فى جميع الكتاب المقدس مثال للرهبنة ولا يوجد أمر من أوامر يلزم بها بل على العكس فإن روح الكتاب وفحواه يضاد كل دعوى مبنية على العزلة ومع ذلك فقد ظهر الميل الشديد إليها فى الكنيسة فى أوائل الجيل الثالث ، وقد قاومها بعض الباحثين

وقتئذ وأثبت أنها عادة سرت لهم من الهنود الوثنيين ، ومع هذه المقاومة استطاعت فكرة العزلة والرهبنة أن تمتد وتنتشر حتى وصلت مصر فى الجيل الرابع على أثر اشتهار أحد الرهبان وممارسته التقشفات بسبب الإضطهاد الذى أصابه وآثر لأجله الطواف فى البرارى فراراً من أيادى مضطهديه ثم عكس على الوحدة وعاش بها ، وقد انتشرت الفكرة من مصر إلى سوريا وفلسطين ثم إلى أكثر الجهات .

ولما كثر عدد الرهبان كثرة هائلة ، ونجم عن حالهم أضرار كثيرة وعظيمة للمجتمع أصدر كثير من الملوك أوامر بمنع هذه العادة إلا أنها لم تقض عليها . وأما بدعة العزوبة والتبتل فنشأت من حض بولس عليها وترغيبهم فيها كما أفصح عنه كلامه فى رسالته الأولى ، وهذه العادة لا يوجد لها برهان فى الكتاب المقدس أيضاً ، وإنما دخلت بالتدريج لظنهم أن العزبة أزكى من الزواج ولما كانوا يسمعونه من مدح التبتل ، وساعد على هذا الوهم أن بعضهم وضع لها نظماً وقوانين فى الجيل الثالث .

واستمر الحال على هذا حتى قاومتها كنائس أخرى ورفضت بدعة التبتل لمغايرتها للطبيعة ومخالفتها للنصوص ولأنها استقرأت

أديرة الراهبين والراهبات فوجدت أنها فى بعض الأماكن كانت تصبح بيوتاً للفواحش والفساد .

وفى كتاب (البراهين الإنجيلية ضد الأباطيـــل البابَاوية) أن ذم الزواج خطأ لأنه عمل الأفضـل ولأن الرسل أخبروا بأن الزواج خير من التوقد بنار الشهوة وأن الأكثرين من رسل المسيح كانوا ذوى نسـاء ، ولا استطاعة لجميع البشر على التبتل ولذلك نرى كثيرين من الأساقفة والشمامسة بل من البابَاوات الذين يدعون العصمة قد تـكردسوا فى هوة الزنا لعدم تحصنهم بالزواج .

ونذر التبتل باطل لأنه مقاومة للطبيعة البشرية وكأنه قتـل ألوف من الذرية ، وهذا النذر لم تأمر به الشريعة الإنجيلية ، فالرهبنة اختراع شيطانى قبيح لم يكن له رسم فى الـكتب المقدسة ولا فى أجيال الـكنيسة الأولى وهو مضر على أنفس الرهبان وعلى الشعب فمن يقاومه يقاوم الشيطان . وهؤلاء الرهبان لا نفع منهم للرعية كالأمراء الذين يتخذون لأنفسهم قصوراً خارج العمران على حساب الشعب . إن بولس الرسول كان يخدم الشعب وكان يخدم الـكنائس ويعيش من كسب يديه ، ويقول

إن الذى لا يعمل لا يطعم ، ولا يتسع المجال لشرح الأضرار التى وقعت على العالم بسبب الرهبنات اهـ .

قال القاسمى : وإنما أوردت ذلك ليكون حجة على المسيحيين من أنفسهم .

واعلم أن الإنجيل قبل تحريفه كتاب ربانى سماوى نزل من الله على عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه غير أنه لم يكتب فى زمن عيسى وإنما كتبه الحواريون بعد رفعه إلى السماء بزمن طويل ؛ ولذلك نجد الأناجيل التى يدعيها النصارى مختلفة كل الاختلاف .

والمشهور اليوم إنجيل مرقص وإنجيل لوقا وإنجيل متى وانجيل يوحنا وإنجيل برنابا ، والثابت أنهم حرفوا كثيراً من هذه الأناجيل كما قال الله تعالى : « يحرفون الكلم عن مواضعه » .

واعلم كذلك أن الترهب والتعبد بما لم يشرعه الله أو الإنقطاع عن الكسب والعمل والعزلة عن الخلق جميعاً ليست فى شرع الاسلام فلبس المسوح وترك أكل اللحوم ، والتطويق بالسلاسل والاختصاء وجب الذكر وصوم الدهر . كل ذلك من الرهبانية التى ليست من الاسلام ، فقد روى فى تفسير الألوسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوماً فذكر الناس ووصف القيامة

فرق النـــاس وبكوا ، واجتمع عشرة منهم فى بيت عثمان بن مظعون الجمحى ، واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم ولا الودك ولا يقربوا النساء والطيب وأن يلبسوا المسوح وأن يرفضوا الدنيا ويسيحوا فى الأرض ، وهم بعضهم أن يجب مذاكيره ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى دار عثمان فلم يصادفه فقال لامرأته أم حكيم أحق مابلغنى عن زوجك وأصحابه فكرهت أن تنكر إذ سألها رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، وكرهت أن تبدى على زوجها ، فقالت : يارسول الله إن كان أخبرك عثمان فقد صدقك ، وانصرف رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما دخل عثمان فأخبرته بذلك أتى رسول الله هو وأصحابه فقال صلى الله عليه وسلم لهم : أنبئت أنكم اتفقتم على كذا وكذا قالوا نعم يا رسـول الله وما أردنا إلى الخير فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لم أومر بذلك ثم قال عليه الصلاة والسلام : إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وافطروا وقوموا وناموا فإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى ، ثم جمع الناس وخطبهم فقال : ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا أما إنى

لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا فإنه ليس فى دينى ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع وأن سياحة أمتى الصوم ورهبانيتهم الجهاد اعبدو الله تعالى ولا تشركوا به شيئا وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم فإنما هلك من قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم فى الديار والصوامع فأنزل الله هذه الآية « ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم إنى لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكن بعثت بالحنيفية السمحة ، والذى نفس محمد بيده لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، ولمقام أحدكم فى الصف خير من صلاة ستين سنة . رواه القرطبى فى تفسيره ، وذكر الألوسى فى تفسير قوله تعالى : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » حديث لا رهبانية فى الاسلام وهو صحيح المعنى وإن كان ضعيف الإسناد .

واعلم أن المؤمن بعيسى عليه السلام إذا آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فإنه يؤتى الأجر مرتين ، وإذا كفر بمحمد بعد بعثته

فلا ينفعه إيمانه السابق لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار . أخرجه مسلم .

خلاصة المعنى

لما أرسل الله نوحاً وابرهيم تابع إرسال الرسل حتى أرسل عيسى ابن مريم بالإنجيل صلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله أجمعين ولما كانت اليهود غلاظ الأكباد ليس فى قلوبهم شفقة ولا رحمة وإنما همهم جمع المال من أى طريق حتى ولو عن طريق بيع الأعراض أو سفك الدماء ، وانتشرت المادية فى صفوفهم أرسل الله عيسى بشريعة كلها رحمة ومسامحة وعلو عن الدنايا ، وأودع فى قلوب النصارى رأفة بعضهم ببعض ورحمة بعضهم لبعض لكثرة ما وصى به عيسى عليه السلام من الشفقة وهضم النفس والمحبة ، وكان فى ذلك العهد أمتان قويتان قد وصلتا فى القوة إلى الذروة ، ولكن الدولتين كلتيهما كانتا فى أشد القسوة على العباد . هاتان الدولتان هما اليهود والرومان ؛ فقد كان لهما أفانين فى تعذيب النوع البشرى حتى كانوا يربون الوحوش المفترسة لأجل تسليطها

على من خالفهم لجاءت رسالة المسيح عليه السلام لتكون على الطرف الآخر من الشفقة والرحمة فدعت الناس إليها وجاهدت كثيراً فى مطاردة القسوة والمادية ، وصبرت على منازلتها حتى ظهرت عليها بتأييد الله ونصره كما يشير إلى ذلك قول الله تعالى : « فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » .

إلا أن النصارى نذروا على أنفسهم وأوجبوا عليها رياضة شديدة وتكاليف شاقة لم يأمرهم الله بها ، ومع ذلك لم يستطيعوا الوفاء بنذورهم ، ولم ينفذوا ما أوجبوه على أنفسهم فما رعوها حق رعايتها فأعطى الله الأجر للصابرين الذين تمسكوا بدينهم وصبروا على تكاليف شريعتهم ، وكذلك نفذوا ما زادوه على أنفسهم من الرهبانية والتبتل ، وذم الله كثيراً منهم لفسقهم وخروجهم عن حدود شريعتهم .

واعلم أن الابتداع فى الدين مذموم شرعاً حتى ولو كان فى صورة عبادة كزيادة ركعة فى صلوات محدودة العدد . والبدعة كل محدث ليس له دليل فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يدخل تحت عمومات النصوص الشرعية ولم

يكن له مستند من إجماع أو قياس وبشرط أن يكون المحدث في الدين . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

كل بدعة ضلالة وقد قسمها بعض العلماء إلى بدعة واجبة ومندوبة وحرام ومكروهة ومباحة ولكنى لا أرى هذا التقسيم بعد أن قال الرسول كل بدعة ضلالة فإذا سمعت عمر يقول نعمت البدعة فإنما يريد البدعة اللغوية .

قال الله تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ
يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ
بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لِّئَلَّا يَعْلَمَ
أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن
فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝

الإعراب والمفردات اللغوية

اتقوا الله : خافوه واجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات والمـــادة فى الأصل من وقى ولما جاءت منها صيغة الافتعال أبدلت الواو تاء وأدغمت فى التاء فصارت اتقى بعد أن كانت أوتقى . وكفلين مثنى كفل وهو النصيب والضعف بكسر الضاد وكفل من باب ضرب ونصر وكرم

ويا حرف نداء وأى منادى مبنى على الضم فى محل نصب وها حرف تنبيه واسم الموصول صفته وآمنوا صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ويؤتكم مجزوم فى جواب الأمر بحذف حرف العلة وكفلين مفعول ثانى يؤتى ومن بيانية ويجعل معطوف على المجزوم ونوراً مفعول أول وجملة تمشون حال من ضمير الجمع واللام فى لئلا لام التعليل وأن مصدرية ناصبة ولا زائدة ويعلم منصوب بأن والفعل يقدرون مرفوع خبر أن المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وجملة يؤتيه حال من لفظ الجلالة واسم الموصول مفعول ثانى ليؤتى والتعظيم صفة للفضل .

الأبحاث والأسرار البلاغية والمعنى

(يا أيها الذين آمنوا) يا حرف نداء وضع لنداء البعيد وقد نودى به المؤمنون لعلو مرتبة المنادى أو المنادى بفتح الدال وقد ينزل غفلة السامعين منزلة بعدهم وأنا أرى بأنه اعتناء بأمر التقوى والإيمان وحث عليهما لأن نداء البعيد وتكليفه الحضور لأمر يقتضى الاعتناء بهذا الأمر والحث عليه فيكون فى الكلام مجاز مرسل استعمل النداء فى لازم معناه أو استعارة تبعية فى الحرف وهو أسلوب إنشائى وما قبل هذه الآية أسلوب خبرى

فوجب الفصل لاختلافهما خبراً وإنشاء وهو ما يسمونه كمال الانقطاع بلا إيهام . وأى فى الأصل نكرة تعرفت هنا بالنداء وتوصل بها لنداء ما فيه أل لأن يا لا تدخل على ما فيه أل إلا فى لفظ الجلالة كما علمت سابقاً لتعذر الجمع بين حرفين للتعريف وها لزيادة التنبيه والتعبير بالموصول للإشادة بالصلة وهى الإيمان ومناسبة الآية لما قبلها أنها ختام للسورة التى حثت على الإيمان والإنفاق كثيراً فناسب ختم السورة بالهدف الأسمى منها وهو الإيمان بالله والرسول .

والأمر بالتقوى يشمل الإنفاق وغيره لأن التقوى هى امتثال الأوامر واجتناب النواهى . فإن قيل لم قدم التقوى على الإيمان قلنا هو من باب الخاص بعد العام ونكتته البلاغية أنه ذكر للشىء مرتين مرة فى ضمن العام ومرة فى ذكره بخصوصه والخطاب فى هذه الآية يحتمل أموراً .

أولا : الخطاب للمؤمنين بمحمد فهو يقول لهم : اتقوا الله واثبتوا على الإيمان برسوله محمد يؤتكم ما وعده المؤمنين من أهل الكتاب إذا آمنوا بمحمد حيث آتاهم أجرهم مرتين واحدة لإيمانهم بنبيهم السابق وأخرى لإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم

فطمأنهم الله على أنهم مثلهم لأنهم آمنوا بمحمد وآمنوا بسائر الأنبياء السابقين لا يفرقون بين أحد من رسله .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جعفراً رضى الله عنه فى سبعين راكباً إلى النجاشى يدعوه إلى الإسلام فقدم جعفر عليه فدعاه فاستجاب له فقال قوم من مؤمنى أهل الحبشة : ائذن لنا فى الوفادة على رسول الله فأذن لهم فقدموا مع جعفر فلما قوموا على المسلمين ورأوا ما بهم من خصاص استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعوا إلى بلادهم وجمعوا أموالهم وقدموا إلى المدينة فعاونوا بها المسلمين فأنزل الله فى حقهم « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » الآية من سورة القصص ، فلما سمع كفار أهل الكتاب من اليهود والنصارى ذلك افتخروا على المسلمين وقالوا من آمن من اليهود والنصارى بمحمد له أجران وأنتم لكم أجر واحد مثلنا فما فضلكم علينا فنزلت آية الحديد التى معنا كأن الله يقول لهم : اثبتوا على إيمانكم ودوموا على طاعتكم واتقوا الله فى جميع أموركم أعطكم حظين من الأجر كما أخذ مؤمنوا أهل الكتاب الذين أمنوا معكم وأزدكم عليهم نوراً تمشون به .

وثانياً : الخطاب لمؤمن أهل الكتاب فهو يقول لهم : يا أيها

الذين آمنوا بموسى أو عيسى آمنـــوا بمحمد صلى الله عليه وسلم يؤتـكم الله نصيبين من رحمته لإيمانـكم بمحمد وإيمانـكم بمن قبله ويجعل لـكم يوم القيامة نوراً كسائر المؤمنين فيما سبق فى قوله: « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » . ويغفر لـكم ما أسلفتم من الـكفر والمعاصى وإنما خاطبهم بوصف الإيمان ليحملهم على الامتثال لأن مقتضى الإيمان الأول المسارعة إلا الامتثال فى المستقبل . كما أن اختيار التعبير هنا بلفظ الجلالة ليحمل على التقوى لما فيه من مزيد المهابة وإدخال الروعة وكذلك التعبير بوصف الرسالة ولم يقل بمحمد للاشارة إلى أنه يجب الإيمان به لـكونه رسولا . وعطف جملة آمنوا على جملة اتقـــوا لأن الجملتين متفقتان فى الإنشائية فبينهما التوسط بين الـكمالين مع عدم المـانع وإضافة رحمة إلى ضمير الجلالة بمـا يفيد عظمها وكثرتها وشرفها وتنـكير نور كذلك يفيد أنه من نوع بالغ فى الإضاءة، ومعنى تمشون به أى على الصراط فى الآخرة وتعرفون به الطريق إلى الجنة كما قال تعالى فى حق الشهداء : « والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمـالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن أحدكم لأعرف بمنزله فى الجنة من منزله فى الدنيا) .

ورأى بعض العلماء أن الآية متعلقة بأمور الدنيا والآخرة فلها تعلق بالدنيا من جهة هذا النور وهو كناية عن الهدى والتوفيق أى نوراً وهداية تمشون بهما فى النـاس تدعونهم إلى الإسلام فتكونون رؤساء فى دين الإسلام وهداة مرشدين لا تزول عنكم رياسة كنتم فيها ، ويهدى الله بكم أناساً كثيرين فالنور على هذا الرأى هو البيان الواضح والهدى من القرآن وللآية تعلق بالآخرة من جهة إيتاء الرحمة والمغفرة والفضل العظيم .

وقوله تعالى: « لئلا يعلم أهل الـكتاب » أى لـكى يعلم أهل الكتاب فلا صلة مؤكدة . والمراد بهم اليهود والنصـارى فاليهود أهل كتاب وهو التوراة ، والنصارى أهل كتاب وهو الإنجيل . قال قتادة حسد أهل الـكتـاب سائر المسلمين على ما أنعم الله عليهم من فضل وما أكرمهم به من خير فنزلت « أى لـكى يعلم أهل الـكتاب أنهم بحسدهم هذا لا يقدرون على منع شىء من فضل الله لأن الفضل بيد الله وحده يؤتيه من يشاء » .

وقيل إن لا فى قوله لئلا يعلم غير زائدة وضمير لا يقدرون للنبى صلى الله عليه وسلم هو ومن معـه من المسلمين كأنه قيل فعلنا ما فعلنا لـكى لا يعتقد المسلـون ونبيهم أنهم لا ينالون شيئاً من فضل الله الذى أنعم بمثله على السابقين .

وكلمة فضل ذكرت مرتين مرة معرفة بالإضافة ومرة معرفة بالألف واللام إشارة إلى الاستغراق لأن كل فضل بيده سبحانه، وختم الآية بقوله: « وأن الفضل بيد الله » ليطمئن المؤمنين على وصول الثواب لهم وأنه لا يقدر أحد على منعه .

وأنت قد علمت أن إضافة اليد إلى الله تعالى من قبيل المتشابه الذى يجب على المسلم أن يحيل ظاهره ، ويفوض المعنى المراد منه إلى الله تعالى كما هو مذهب السلف أو يؤول اليد بالقدرة كما هو مذهب الخلف ، وختم الآية بقوله : « والله ذو الفضل العظيم » ليكون تذييلا مقرراً لما أنعم الله به على الناس عامة وعلى المؤمنين خاصة من فضله الوافر وكرمه العظيم .

وقد استنبط العلماء من هذه الآية الكريمة أن من اتقى الله علمه الله لأن الله أمر فيها بالتقوى والإيمـــان ورتب على ذلك ثلاثة أمور :

الأول : إيتـاء الأجر مضاعفاً فى قوله : « يؤتكم كفلين من رحمته » .

الثانى : إعطاء الهدى والنور يلازم صاحبه فى الدنيـا والآخرة حتى يدخله الجنة .

الثالث . غفران الذنوب كلها صغيرها وكبيرها .

وفى الآثار من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم .

وفى الحديث : (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران). رواه البخارى .

وأفضل ما أختم به تفسير الآية ما ورد من الحديث الصحيح الذى يبشر كل مؤمن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر : (إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً . ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً . ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين ، قال أهل التوراة والإنجيل : ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجراً . قال هل ظلمتكم من أجركم من شىء قالوا لا قال : فذلك فضلى أوتيه من أشاء .

خاتمة : اعلم أن من طرائف هذه السورة أن الله أحاط فيها بأصناف العباد جميعاً فذكر فيها السعداء جعلنا الله منهم فى قوله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » . وفى قوله « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » . كما ذكر الأشقياء فى قوله تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم » الآية وفى قوله : « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » . ثم قسم الله السعداء فى السورة أنواع .

النوع الأول : وهو خير الأنواع الرسل الكرام فى قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات » وفى قوله : « ولقد أرسلنا نوحاً وابرهيم » وفى قوله : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم » .

النوع الثانى : الصديقون .

والنوع الثالث : الشهداء فى قوله تعالى : « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء » .

والنوع الرابع : المجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وذلك فى قوله تعالى : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل

الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير » وفى قوله : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم » . كذلك قسم الله فيها الأشقياء إلى أنواع فذكر أسفلهم وأشدهم عذابا وهم المنافقون والمنافقات ثم الكافرون المكذبون بآيات الله وقد سبقت الإشارة إلى هؤلاء قال الإمام ابن القيم وترك سبحانه ذكر العاصى المخلط صاحب الشائبتين على طريقة القرآن فى ذكر السعداء والأشقياء دون المخلطين غالباً لسر اقتضته حكمته ، فليحذر صاحب التخليط فإنه لا ضمان له على الله فلا هو من أهل وعده المطلق ، ولكنه مع ذلك لا ييأس من رحمة الله لأنه ليس بكافر ولكنه واقف بين الجنة والنار وبين الوعد والوعيد كل منهما يدعوه إلى موجبه لأنه أتى بسببه ، وهذا هو الذى لحظه القائلون بالمنزلة بين المنزلتين ولكنهم غلطوا فى تخليده فى النار ولو وكلوه إلى المشيئة لأصابوا ا هـ .

وبعد فسبحانك اللهم وبحمدك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العزيز الحكيم . والله أعلم بمراده والحمد لله على ما وفقنى إليه ودلنى عليه فإن وجد القارىء حسنا فمن الله مصدره وإلى الله مرجعه ، وإن وجد غير ذلك فهذا شأن البشر يخطىء تارة

ويصيب أخرى ، وما أبرىء نفسي ولا أدعي لها العصمة غير أني قد بذلت جهدي ما استطعت ، وأسأل الله أن يدخر لي ثوابه ، وأن ينفع به إنه سميع مجيب .

وصلى الله على خاتم الأنبياء وسيد الرسل سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً والحمد لله رب العالمين .

ميت أبو غالب
في رمضان المبارك سنة ١٣٨٩
ثم في يناير سنة ١٩٧٠ م

المؤلف
الشرباصي الحسنين
أستاذ التفسير المساعد
بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر

فهرست لأهم الموضوعات
فى تفسير سورة الحديد

أهم المراجع

١ – روح المعانى للألوسى
٢ – القرطبي
٣ – الفخر الرازى
٤ – القاسمى
٥ – فتح البارى شرح البخارى لابن حجر
٦ – رياض الصالحين للنووى
٧ – زاد المعاد لابن القيم
٨ – المواقف فى التوحيد
٩ – الفتح الربانى للساعاتى
١٠– الوحى المحمدى للسيد رشيد رضا

والحمد لله أولا وآخراً

الشرباصى الحسنين
الأستاذية فى التفسير والحديث
بجامعة الأزهر

مطبعة دار التأليف ٨ شارع يعقوب بالمالية بمصر
تليفون ٢١٨٢٥

رقم الإيداع ٢٢٩٣/ ١٩٧٠